التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الأحزاب

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م

الطبعة الرابعة

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١ — سورة الأحزاب هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف وهي من السور المدنية ، وكان نزولها بعد سورة آل عمران ، أي : أنها من أوائل السور المدنية ، إذ لم يسبقها في النزول بعد الهجرة سوى سور : البقرة والأنفال وآل عمران .

ويبدو : ان نزولها كان في الفترة التي أعقبت غزوة بدر ، إلى ما قبل صلح الحديبية ، وعدد آياتها ثلاث وسبعون آية .

٢ — وقد إفتتحت سورة الأحزاب بنداء من الله — تعالى — لنبيه — صلى الله عليه وسلم — ، نهته فيه عن طاعة المنافقين والكافرين ، وأمرته بالمداومة على طاعة الله — تعالى — وحده ، وبإتباع أمره ، وبالتوكل عليه — سبحانه — .

قال — تعالى — : « يأيها النبي إتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . وإتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

٣ — ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان حكم الله - تعالى - في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع في ذلك الوقت ، فأبطلت التبني ، كما أبطلت ما كان سائدا في المجتمع من عادة الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، فتصير محرمة عليه حرمة مؤبدة .

قال الله ـ تعالى ـ : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل . أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . . » .

٤ — ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بعض الأحكام التشريعية الأخرى ، كوجوب طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طاعة تفوق طاعتهم لأنفسهم ولوجوب تعظيم المسلمين لزوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتعظيمهم لأمهاتهم وكوجوب التوارث بين الأقارب بالطريقة التى بينها ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى ، وإبطال التوارث عن طريق المؤاخاة التى تمت بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار .

قال ـ تعالى ـ : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

٥ — ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بجانب من نعمه عليهم ، حيث دفع عنهم جيوش الأحزاب ، وأرسل على تلك الجيوش ، جنودا من عنده لم يروها ، وكشف عن رذائل المنافقين التى ارتكبوها فى تلك الغزوة ، ومدح المؤمنين الصادقين على وفائهم بعهودهم ، وكافأهم على ذلك بأن أورثهم أرض أعدائهم وديارهم .

قال ـ تعالى ـ : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا » .

وبعد هذا الحديث المفصل عن غزوة الأحزاب ، والذى استغرق مايقرب

من عشرين آية ، إنتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخيرهن بين التسريح بإحسان ، وبين الصبر على شظف العيش، ليظفرن برضا الله - تعالى - كما وجهت نداء إليهن أمرتهن فيه ، بالتزام الآداب الدينية التى تليق بهن ، لأنهن فى مكان القدوة لسائر النساء .

كما أمرتهن بالبقاء فى بيوتهن ، فلا يخرجن لغير حاجة مشروعة . ومثلهن فى ذلك مثل سائر نساء المسلمين ، حتى يتفرغن لرعاية شئون بيوتهن التى هى من خصائصهن وليست من خصائص الرجال . . .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات الحكيمة ببيان الثواب الجزيل الذى أعده للمؤمنين والمؤمنات . فقال - تعالى -: إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

٧ — ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى قصة زواج النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسيدة زينب بنت جحش ، وإلى الحكمة من ذلك . وإلى تطليق زيد بن حارثة لها ، وإلى أن ما فعله رسول - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لهذه الحادثة . كان بأمر الله - تعالى - وإذنه . .

قال - تعالى - ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . . وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » .

ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين ، أمرتهم فيه بالإكثار من

ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتنزيهه ، كما وجهت نداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينت له فيه وظيفته ، قال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما . يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . . . . » .

٩ - ثم تحدثت السورة بعد ذلك بشىء من التفصيل عن بعض الأحكام التى تتعلق بأزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - وبعلاقته - صلى الله عليه وسلم - بهن من حيث القسم وغيره ، ومن حيث الزواج بغيرهن . .

كما تحدثت عن الآداب التى يجب على المؤمنين أن يلتزموها عند دخولهم بيوت النبى - صلى الله عليه وسلم - بدعوة منه ، لأجل تناول طعام ، أو لأجل أمر من الأمور الأخرى التى تتعلق بدينهم أو دنياهم .

ثم ختمت هذه الآيات بقوله - تعالى - يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما .

١٠ — وبعد هذا البيان المفصل لكثير من الأحكام والآداب ، أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، فى تهديد المنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وفى بيان أن سنن الله فى خلقه لا تتخلف ، وأن علم وقت قيام الساعة إلى الله - تعالى - وحده ، وأن الإصرار على الكفر يؤدى إلى سوء العاقبة ، وأن السير على طريق الحق ، يؤدى إلى مغفرة الذنوب ، وأن الإنسان قد ارتضى حمل الأمانة ، التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبـــال . .

قال - تعالى - : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما » .

١١ — ومن هذا العرض المجمل لآيات سورة الأحزاب ، ترى أنها قد اهتمت بموضوعات من أبرزها ما يلى :

(أ) كثرة التوجيهات والإرشادات ، من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم - إلى أفضل الأحكام ، وأقوم الآداب ، وأهدى السبل .

وهــــذه التوجيهات والإرشادات . نراها فى كثير من آيات سورة الأحزاب لاسيما التى نادت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوصف النبوة

ومن ذلك قوله - تعالى - : « يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . . . . » .

وقوله - سبحانه - : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها . . . . » .

وقوله - عز وجل - : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا »

وقوله - تعالى - : « يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن . . . . » .

وقوله - سبحانه - : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . . . » .

(ب) أمر المؤمنين بطاعة الله - تعالى - ، وبطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ونهيهم عن كل ما من شأنه أن يتعارض مع تشريعات الإسلام ومع آدابه .

وهذه الأوامر والنواهي، نراها في كثير من آيات هذه السورة الكريمة.

ومن ذلك قوله تعالى ـ : «يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . . .» .

وقوله ـ سبحانه ـ : «يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا . . . .» .

وقوله ـ عز وجل ـ: «يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . . .» .

وقوله ـ تعالى ـ : «يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا . . .» .

وقوله ـ سبحانه ـ : «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً» .

(ح) هذه السورة الكريمة تعتبر على رأس السور القرآنية التي اهتمت ببيان فضل نساء النبي ـ ﷺ ـ وحقوقهن، وواجباتهن وخصائصهن.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : «يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين . . .» .

وقوله ـ سبحانه ـ : «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن، فلا تخضعن بالقول . . .» .

وقوله ـ عز وجل ـ : «وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة، وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله . . .» .

وقوله ـ سبحانه ـ : «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج، ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك . . .» .

وقوله ـ تعالى ـ : «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . . .» .

وقوله - عز وجل - : «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم»

(د) هذه السورة تعتبر من أجمع السور القرآنية التى تعرضت لكثير من الأحكام الشرعية ، والآداب الاجتماعية ، التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان

ومن ذلك حديثها عن الظهار ، وعن التبنى ، وعن التوارث بين الأقارب دون غيرهم ، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على طاعة الإنسان لنفسه ، وعن وجوب التأسى به ، وعن وجوب الابتعاد عن كل ما يؤذيه أو يجرح شعوره ، وعن وجوب الخضوع لحكم الله - تعالى - ولحكم رسوله — صلى الله عليه وسلم — .

قال - تعالى - : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

(هـ) السورة الكريمة فصلت الحديث عن غزوة الأحزاب ، التى وقعت فى السنة الخامسة من الهجرة بين المسلمين وأعدائهم .

فبدأت حديثها عن تلك الغزوة بتذكير المؤمنين بفضل الله — تعالى — عليهم فى هذه الغزوة ، ثم صورت أحوالهم عند إحاطة جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة .

قال — تعالى — : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . . . » .

ثم حكت أقوال المنافقين القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ، وبما يكشف عن سوء أخلاقهم .

قال - تعالى - : « أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا » .

ثم مدحت المؤمنين الصادقين لوفائهم بعهودهم ، ولشجاعتهم فى مواجهة أعدائهم .

قال - سبحانه - : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . . » .

وكما بدأت السورة حديثها عن غزوة الأحزاب بتذكير المؤمنين ، بنعم الله عليهم ختمته - أيضاً - بهذا التذكير ، لكى يزدادوا شكراً له - عز وجل -

قال - تعالى - : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها ، وكان الله على كل شيء قديرا » .

(و) والخلاصة أن المتأمل فى سورة الأحزاب ، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية ، وبالآداب الاجتماعية ، وبالتوجيهات الربانية ، تارة من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وتارة لأزواجه - صلى الله عليه وسلم - ، وتارة للمؤمنين .

كما يراها تهتم اهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما ، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه
٨ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ ٢٨/٤/١٩٨٥م د. محمد سيد طنطاوى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ
ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ
وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ
وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ
ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا
كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ
وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم
مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - وبهذا الوصف الكريم، وهو الوصف بالنبوة، على سبيل التشريف والتعظيم.

قال صاحب الكشاف: جعل - سبحانه - نداءه بالنبي والرسول في قوله: «يأيها النبي. يأيها الرسول»، وترك نداءه باسمه، كما قال: يا آدم، ياموسى، يا عيسى، يا داود: كرامة له وتشريفا، وتنويها بفضله.

فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء. فقد أوقعه في الإخبار، في قوله: «محمد رسول الله...»؟

قلت: ذاك لتعليم الناس بأنه رسول، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به...»(١).

والمراد بأمره بتقوى الله: المداومة على ذلك، والازدياد من هذه التقوى.

أى: واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله، وعلى مراقبته، وعلى الخوف منه، وأكثر من ذلك، فإن تقوى الله، على رأس الفضائل التى يحبها - سبحانه -.

قال ابن كثير: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه - تعالى - إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى

وقد قال خلف بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله».(٢)

وبعد الأمر بالتقوى، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين، فقال - تعالى -: «ولا تطع الكافرين والمنافقين».

أى: واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله، واجتنب طاعة

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٨
(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٦

الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

وفى إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيماء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبى (صلى الله عليه وسلم) عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة ، طلبوا من النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يرجع عن قوله ، وأن يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود بالمدينة هددوه بالقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت (١) .

وقوله - تعالى - «إن الله كان عليما حكيما» : تعليل للأمر والنهى . أى : اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله - تعالى - عليم بكل شىء ، وحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

ثم أمره - سبحانه - باتباع ما يوحيه إليه فقال : «واتبع ما يوحى إليك من ربك ...» أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع فى كل ما تأتى وتذر ، كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما .

فالجملة الكريمة معطوف على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .

وفى النص على أن الوحى إليه (صلى الله عليه وسلم) ، وأن هذا الوحى من ربه الذى تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الإتباع التام الذى لا يشوبه انحراف أو تردد .

ثم أكد - سبحانه - هذا الأمر تأكيداً قوياً فقال : «إن الله كان بما تعملون خبيرا» أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٠

وكل من يخالف ما أمرناه به . أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه .

وقوله ــ سبحانه ــ : « وتوكل على الله » أى : وفوض أمرك إليه ــ عز وجل ــ وحده .

« وكفى بالله وكيلا » أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، وإتباع وحيه ، والتوكل عليه ــ تعالى ــ وحده .

كما تضمنت نهيه (صلى الله عليه وسلم) عن طاعة الكافرين والمنافقين : وباتباع هذه الأوامر والنواهى ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

• • •

ثم أبطل ــ سبحانه ــ بعض العادات التى كانت متفشية فى المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال ــ تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . . » نزلت فى رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهرى ، كان حفاظا لما يسمع ، وكان يقول : له قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله ـ من شدة الهلع ـ ، فقال له أبو سفيان . ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . فقال له : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى . فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده .

وقيل فى سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا (ﷺ) له قلبان ،

لأنه وبما كان فى شىء فنزع فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . »(١) .

ويرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله ـ تعالى ـ للمظاهر من امرأته ، والمتبنى ولد غيره ، تمهيدا لما بعده .

أى : كما أن الله ـ تعالى ـ لم يخلق للإنسان قلبين فى جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له فى وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له فى زمن واحد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: أى :ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل . . لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك . .

لأن النبوة أصالة فى النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير . .

فإن قلت:أى فائدة فى ذكر الجوف ؟ قلت:الفائده فيه كالفائدة فى قوله ـ تعالى ـ : « ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار . . »(٢) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم» إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١١٦ .

(٢) تفسير الكشاف ـ بتصرف وتلخيص ـ جـ ٣ ص ٥٢١ .

يقال : ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه . .

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، فى سورة المجادلة ، فى قوله - تعالى - : قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . . . » .

وقوله - سبحانه - : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهى عادة التبنى .

والأدعياء : جمع دعى ، وهو الولد الذى يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبنى بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما .

قال ابن كثير : وقوله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة ، مولى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقد كان صلى الله عليه وسلم - قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله - تعالى - أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » ، كما قال فى أثناء السورة : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . . »(١) .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلكم قولكم بأفواهكم » يعود إلى ماسبق ذكره من التلفظ بالظهار ومن إجراء التبنى على ولد الغير ، وهو مبتدأ - وما بعده خبر .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٧٧ .

أى : ذلكم الذى تزعمونه من تشبيه الزوجة بالأم فى التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق .

قال ابن جرير : وقوله : «ذلكم قولكم بأفواهكم» يقول-تعالى ذكره- هذا القول ، وهو قول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى ، ودعاؤه من ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت بهذه الدعوى نسب الذى أدعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها : أنت على كظهر أمى »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » أى : والله - تعالى - يقول الحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو - سبحانه - دون غيره يهدى ويرشد إلى السبيل القويم الذى يوصل إلى الخير والصلاح . وما دام الأمر كذلك فاتركوا عاداتكم وتقاليدكم التى ألفتموها ، والتى أبطلها الله - تعالى - بحكمته ، واتبعوا ما يأمركم به - سبحانه - .

ثم أرشدهم إلى الطريقة السليمة فى معاملة الابن المتبنى فقال : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . . »

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم ، فإن هذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى - .

قال الآلوسى : أخرج الشيخان عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد ابن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : « ادعوهم لآبائهم . . . » فقال - صلى الله عليه

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٧٥ .

وسلم ـ : « أنت زيد بن حارثة بن شراحيل . . . »(١) .

وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب ، ثم بيع فى مكة ، واشتراه حكيم ابن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار الناس يقولون : زيد بن محمد حتى نزلت الآية .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » إرشاد إلى معاملة هؤلاء الأدعياء فى حالة عدم معرفة آبائهم .

أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن ذلك أعدل عند الله ـ تعالى ـ ، وأشرف للآباء والأبناء ، فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين والعقيدة ، وهم مواليكم ، فقولوا لهم : يا أخى أو يامولاى ، واتركوا نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين .

وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية ومن اضطراب فى الأنساب ، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر والعفاف ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما » .

أى : انسبوا ـ أيها المسلمون ـ الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يامولاى . ومع كل

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٤٧ .

ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما ، فيما وقعتم فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم .

« وكان الله » ـ وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هاتين الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذي حق حقه ، ومن مظاهر ذلك إبطال الظهار الذي كان يجعل المرأة محرمة على الرجل . ثم تبقى بعد ذلك معلقة ، لا هي مطلقة فتتزوج غير زوجها ، ولا هي زوجة فتحل له ، فشرع الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها .

ومن مظاهر ذلك ــ أيضا ــ : إبطال عادة التبني ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين ، وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية والواقعية .

ولقد حذر الإسلام من دعوى الإبن إلى غير أبيه تحذيراً شديداً ، ونفر من ذلك .

قال القرطبي : جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة ، كلاهما قال : سمعته أذناي ووعاه قلبي ، محمداً صلى الله عليه وسلم يقول « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام » .

وفي حديث أبي ذر أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » (١) .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ١٢١

ثم بين — سبحانه — ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم (ﷺ) ، ونحو أزواجه ، وما يجب الأقارب فيما بينهم . فقال — تعالى — : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

أى : النبى (صلى الله عليه وسلم) أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا مادعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه وجب أن يؤثروا مادعاهم إليه ، على ماتدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) لايدعوهم إلا إلى ماينفعهم . أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى مايضرهم .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة . أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : إنما مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه - أى فى الشىء المستوقد - وأنا آخذ بحجزكم - أى : وأنا آخذ بما يمنعكم من السقوط كملابسكم ومعاقد الإزار — وأنتم تقحمون فيه أى : وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم — .

قال القرطبى : قال : العلماء : الحجزة : السراويل ، والمعقد للإزار فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه ، أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتهاد نبينا (صلى الله عليه وسلم) فى نجاتنا وحرصه على تخاصينا من الملكات التى بين أيدينا . فهو أولى بنا من أنفسنا » (١) .

وقال الإمام ابن كثير . قد علم الله — تعالى — شفقة رسوله (صلى الله عليه وسلم) على أمته ، ونصحه لهم . فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم .

وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٢٨١

وروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه .

وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأيما رجل مات وترك ديناً فإلى ، ومن ترك مالا فلورثته » (١) .

قال الآلوسى : وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) بهذه المثابة فى حق المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه — عليه الصلاة والسلام — عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها .

وسبب نزول الآية - على ما قيل - ما روى من أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد غزوة تبوك . فأمر الناس بالخروج . فقال أناس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت . ووجه دلالتها على السبب أنه (صلى الله عليه وسلم) إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى (٢) .

ثم بين — سبحانه — منزلة أزواجه (صلى الله عليه وسلم) بالنسبة للمؤمنين فقال : « وأزواجه أمهاتهم » أى : وأزواجه (صلى الله عليه وسلم) بمنزلة أمهاتكم — أيها المؤمنون — فى الإحترام والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٢٢

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢١ ص ١٦١

قالوا : وأما ما عدا ذلك كالنظر إليهن ، والخلوة بهن ، وإرثهن ، فهن كالأجنبيات .

ثم بين - سبحانه - أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال - تعالى - «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا » .

والمراد بأولى الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء والأبناء ، والإخوة ، والأخوات .

وقوله : « فى كتاب الله » متعلق بقوله « أولى » أو بمحذوف على أنه حال من الضمير فى « أولى » .

والمراد بالمؤمنين والمهاجرين . من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة قرابة .

قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله -عز وجل- فينا خاصة معشر قريش والأنصار : «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض» وذلك أنا معشر قريش ، لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم .. حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فراجعنا إلى مواريثنا » (١) .

وشبيه بهذه الآية فى وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم ، قوله — تعالى — فى آخر آية من سورة الأنفال : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » .

والاستثناء فى قوله — سبحانه — : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم»

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٣

معروفا » . رجح بعضهم أنه إستثناء منقطع . وقوله « أن تفعلوا » مبتدأ ، وخبره محذوف .

والمراد بالكتاب فى قوله « كان ذلك فى الكتاب مسطورا » القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ .

والمعنى : وأولوا الأرحام وهم الأقارب ، بعضهم أولى ببعض فى التوارث فيما بينهم ، وفى تبادل المنافع بعضهم مع بعض ، وهذه الأولوية والأحقية ثابتة فى كتاب الله - تعالى - حيث بين الكم فى آيات المواريث التى بسورة النساء ، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب ، وهم بهذا البيان أولى فى ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .

هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث لكن إذا أردتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين المعروفا ، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس ، ولا حرج عليكم فى ذلك .

وهذا الحكم الذى بيناه لكم فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب ، كان مسطوراً ومكتوباً فى اللوح المحفوظ ، وفى آيات القرآن التى سبق نزولها فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه .

قال الشوكانى ما ملخصه قوله : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا » هذا الإستثناء إما متصل من أعم العام . والتقدير : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كل شيء من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز .

وإما منقطع . والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به .

والإشارة بقوله : « كان ذلك » ، تعود إلى ماتقدم ذكره . أى : كان نسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات

-فى الكتاب مسطورا، أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن مكتوبا »(١) .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ، وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث

ثم ذكر الله — تعالى — رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالعهد الذى أخذه عليه وعلى الأنبياء من قبله ، فقال — تعـــالى — : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » .

والميثاق : العهد الموثق المؤكد . مأخوذ من لفظ وثق ، المتضمن معنى الشد والربط على الشىء بقوة وإحكام .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أخذنا من جميع النبيين العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناه إليهم من هدايات للناس ، وعلى أن يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا فى أصول الشرائع ومكارم الأخلاق .. كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .

وخص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه بفضلهم ، فهم أولوا العزم من الرسل ، وهم الذين تحملوا فى سبيل إعلاء كلمة الله — تعالى — أكثر مما تحمل غيرهم .

وقدم (صلى الله عليه وسلم) عليهم فى قوله « ومنك من نوح . . » لمزيد فضله (صلى الله عليه وسلم) على جميع الأنبياء .

قال الآلوسى : ولا يضر تقديم نوح - عليه السلام - فى سورة الشورى ، أعنى قوله - تعالى - : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك . . » إذ لكل مقام مقال . والمقام فى سورة الشورى وصف دين الإسلام بالأصالة . والمناسب فيه تقديم نوح . فكأنه قيل : شرع لكم الدين

(١) تفسير فتح القدير جـ ٦ ص ٢٦٢

الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء »(١)

وقوله - سبحانه - : « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » معطوف على ما قبله وهو « أخذنا من النبيين ميثاقهم » لإفادة تفخيم شأن هذا الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد فى أقصى درجات الأهمية والشدة .

أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة رفيع المقدار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فماذا أراد بالميثاق الغليظ ؟

قلت : أراد به ذلك الميثاق بعينه . إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا .

والغلظ استعارة فى وصف الأجرام ، والمراد : عظم الميثاق وجلالة شأنه فى بابه .

وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على الوفاء بما حملوا »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » متعلق بقوله : « أخذنا » ، أو بمحذوف . والمراد بالصادقين : الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق .

أى : فعل - سبحانه - ذلك ليسأل يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، وعن موقف هؤلاء الأقوام منهم .

والحكمة من هذا السؤال تشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ، وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءوهم به من كلام صادق ، ومن إرشاد حكيم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٥٤

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٢٥ .

وقوله — سبحانه — : «وأعد للكافرين عذابا أليما» معطوف على ما دل عليه قوله «ليسأل الصادقين».

أى : أثاب — عز وجل — الأنبياء الكرام بسبب صدقهم فى تبليغ رسالته وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم عذابا أليما، بسبب هذا الإعراض.

وهكذا جمعت الآية الكريمة بين ما أعده — سبحانه — من ثواب عظيم للصادقين، ومن عذاب أليم للكافرين.

وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية، أنتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب، وعن فضل الله — تعالى — على المؤمنين فيها، فقال — سبحانه — :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ
ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ
قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ
فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ
إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا
تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

وغزوة الأحزاب، من الغزوات المشهورة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وكانت - على الراجح - في شهر شوال من السنة الخامسة بعد الهجرة:

وملخصها - كما ذكر الإمام ابن كثير - أن نفرا من اليهود - على رأسهم حيي بن أخطب - خرجوا إلى مكة، واجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك..

ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب المسلمين ، فاستجابوا لهم — أيضاً — . .

وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها ، والجميع فى جيش قريب من عشرة آلاف رجل .

وعندما علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — بمقدمهم ، أمر بحفر خندق حول المدينة .

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينه ، فوجدوا الخندق قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها ، كأن أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد .

وخلال هذه الفترة العصيبة، نقض يهود بنى قريظة عهودهم مع المسلمين وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين . .

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر ، ثم جاء نصر الله — تعالى — ، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده ، فتصرعت جبهات الأحزاب ، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال . . »(١) .

وقد ابتدأ الله — تعالى — الحديث عن هذه الغزوة ، بنداء وجهه إلى المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها . . »

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٨٥ . والسيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، « اذكروا » على سبيل الشكر والاعتبار ، نعمة الله عليكم ، ورحمته بكم .

« إذ جاءتكم جنود » كثيرة ، هى جنود جيوش الأحزاب « فأرسلنا عليهم ريحا » شديدة زلزلتهم ، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع .

كما أرسلنا عليهم « جنودا لم تروها » وهم الملائكة ، الذين ألقوا الرعب فى قلوب أعدائكم .

قالوا : روى أن الله - تعالى - بعث عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة ، فألقت التراب فى وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت نيرانهم وقذفت فى قلوبهم الرعب . . فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان : النجاء النجاء . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « وكان الله بما تعملون بصيرا » تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله - تعالى - عليهم .

أى : جاءتكم تلك الجنود الكثيرة ، فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا عليهم من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره ، وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا .

ثم فصل - سبحانه - ماحدث للمؤمنين فى هذه الغزوة ، بعد هذا الإجمال ، فقال : « إذ جاءوكم من فوقكم » أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق . والجملة بدل من قوله « إذ جاءتكم جنود » :

والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوازن . وانضم إليهم بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ١٥٦ .

« ومن أسفل منكم » أى : ومن أسفل الوادى من جهة المغرب، وهم قريش ومعهم أحابيشهم وحلفاؤهم .

وقوله : « وإذ زاغت الأبصار » معطوف على ماقبله ، داخل معه فى حيز التذكير .

أى : واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شىء حولها ، وصارت لا تنظر إلا إلى أولئك الأعداء .

يقال : زاغ البصر يزيغ زيغا وزيغانا إذا مال وانحرف، ويقال أيضاً : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول .

وقوله « وبلغت القلوب الحناجر » بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم .

والحناجر : جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقوم . والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديداً ، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم .

فالآية تصور ما أصاب المسلمين من فزع وكرب فى غزوة الأحزاب، تصويراً بديعاً مؤثراً ، يرسم حركات القلوب ، وملامح الوجـــوه ، وخلجات النفوس .

وقوله — سبحانه — : « وتظنون بالله الظنونا » بيان لما دار فى عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة .

والظنون جمع الظن . وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه . وجاء بصيغة الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه .

أى : وتظنون - أيها المؤمنون - بالله - تعالى - الظنون المختلفة ، فنكم من ازداد يقيناً على يقينه ، وازداد ثقة بوعد الله - تعالى - وبنصره ، ومنكم من

كان أقل من ذلك فى ثباته ويقينه ، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان الإسلام ، ويخفى الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئه ، بأن اعتقدوا بأن الدائرة ستدور عليكم .

قال ابن كثير قوله : « وتظنون بالله الظنونا » قال الحسن : ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه ـ سبحانه ـ سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله ، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : نعم . قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

قال : « فضرب الله ــ تعالى ــ وجوه أعدائه بالريح فهزمهم » (١) .

ولفظ « هنالك » فى قوله ــ تعالى ــ : « هنالك ابتلى المؤمنون . » : ظرف مكان للبعيد ، وهو منصوب بقوله « ابتلى » والابتلاء : الاختبار والامتحان بالشدائد والمصائب .

أى : فى ذلك المكان الذى أحاط به الأحزاب من كل جانب ، امتحن الله ـ تعالى ـ المؤمنين واختبرهم ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

« وزلزلوا زلزالا شديداً » أى : واضطربوا اضطراباً شديداً ، من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم .

ولقد بلغ انشغال المسلمين بعدوهم انشغالا عظيما . حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا بعض الصلوات فى أوقاتها ، وقال بعض الصحابه : يارسول الله ، ماصلينا ، فقال لهم (صلى الله عليه وسلم) : «ولاأنا والله ماصليت . ثم قال شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا » .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٣٨٩

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا — دون أن تعرف إحداهما الأخرى — فتقاتلا ، وحدث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين حتى تنادوا بشعار الإسلام : « حم . لا ينصرون » ، فكف بعضهم عن بعض .

فلما بلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لهم : « جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد » .

ومما زاد في بلاء المسلمين وحزنهم . ما ظهر من أقوال قبيحة من المنافقين حكاها ـ سبحانه ـ في قوله : «وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » أي : واذكروا — أيضاً — أيها المؤمنون — وقت أن كشف المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة ، وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ، فقالوا لكم وأنتم في أشد ساعات الحرج والضيق : (ما وعدنا الله ورسوله) بالنصر والظفر (إلا غرورا) أي : إلا وعداً باطلا ، لا يطابق الواقع الذي نعيش فيه .

وقال أحدهم : (إن محمداً كان يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط) .

(وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا .)

أي : واذكروا — كذلك — أيها المؤمنون — وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : (يا أهل يثرب) أي : يا أهل المدينة لا مقام لكم في هذا المكان الذي تقيمون فيه بجوار الخندق لحماية بيوتكم ومدينتكم فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .

قال الشوكاني : وذلك أن المسلمين خرجوا في غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال هؤلاء المنافقون : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا

الناس بالرجوع إلى منازلهـم بالمدينة » (١) .

ثم بين — سبحانه — أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول الفميم ، بل كانوا يهربون من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال — تعالى — : (ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) .

أى : أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه فى الجهاد ولا يكتفون بذلك ، بل كان كل فريق منهم يذهب إلى النبى (صلى الله عليه) فيستأذنه فى الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يارسول : (إن بيوتنا عورة) أى : خالية ممن يحرسها . يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها لقلة حصانتها

وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم فى دعواهم فيقول : (وما هى بعورة) أى : والحال أن بيوتهم ليست كما يزعمون ، وإنما الحق أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال . لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .

روى أن بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليقول له : إن بيوتنا عورة . وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، س بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كى نرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن لهم (صلى الله عليه وسلم) .

فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لاتأذن لهم . إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك . . فردهم .

ثم بين — سبحانه — أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل نقيض فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم . فقال - تعالى - (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا) .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى حـ ٦ ص ٢٦٦

والضمير فى قوله — تعالى — (دخلت) للبيوت أو للمدينة . وفاعل الدخول من دخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفساد .

وأسند — سبحانه — الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها .

والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .

والمراد بالفتنة هنا : الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .

وقوله (لآتوها) قرأه الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع وابن كثير (لأتوها) بالقصر ، بمعنى لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر .

والمعنى إن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون فى زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة ، ونفوس عارية عن كل خير .

والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التى يزعمون أنها عورة لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها . ثم طلب منهم أن ينضموا إليهم فى مقاتلة المسلمين لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة يعدون العدة خلالها لقتالكم — أيها المسلمون — وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم ، لأن عقيدتهم واهنة ونفوسهم مريضة خائرة .

قال صاحب الكشاف قوله : (ولو دخلت عليهم) أى : المدينة . وقيل : بيوتهم . من قولك : دخلت على فلان داره (من أقطارها) أى : من جوانبها . يريد : ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون منها مدينتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة (الفتنة) أى : الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين . لآتوها أى : لجاءوها ولفعلوها . وقرىء .

لأتوها . أى : لأعطوها (وما تلبثوا بها إلا يسيرا) ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف . أو مالبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا . فإن الله يهلكهم » (١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أن من الصفات اللازمة للمنافقين نقضهم لعهودهم فقال — تعالى — : (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) .

أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يساكنونكم فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .

(وكان عهد الله مسئولا) أى : مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله — تعالى — على الوفاء ، وسيجازى - سبحانه - كل ناقض لعهده بما يستحقه من عقاب .

* * *

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين ، فوبختهم على سوء فهمهم . وعلى جبنهم وخورهم وعلى سلاطة ألسنتهم ...

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٢٨

فقال - تعالى - :

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن
فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ
مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ
ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ
سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ
ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ
يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ
يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنافقين : (لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، لأن كل إنسان لابد له من نهاية تنتهى عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن طريق القتل بالسيف . أم عن طريق الموت على الفراش .

ومادام الأمر كذلك فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر

الحياة ، وأن الشجاعة لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول : « ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».

وقوله : « إن فررتم . . . » جوابه محذوف لدلالة ماسبق عليه . أى إن فررتم لن ينفعكم فراركم .

وقوله : « وإذا لا تمتعون إلا قليلا » تذييل قصد به زجرهم عن الجبن الذى استولى عليهم .

أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض - لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم منه فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : « قل من ذا الذى يعصمكم من الله، إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . . . . » .

أى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك أن يدفع ما يريده الله - تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة ، ومن موت أو حياة . . .

إن أحد لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم فالاستفهام للإنكار والنفى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء فى العصمة ، ولا عصمة إلا من السوء ؟

قلت : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام، وأجرى مجرى قول : « متقلداً سيفاً ورمحاً » أي : «متقلداً سيفاً وحاملا رمحاً » (١) . . . .

وقوله ـ تعالى ـ : « ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا » معطوف على ماقبله . أي : لا يجدون من يعصمهم مما يريده الله ـ تعالى ـ بهم ، ولا يجدون من دونه ـ سبحانه ـ ولياً ينفعهم ، أو نصيراً ينصرهم ، إذ هو وحده ـ سبحانه ـ الناصر والمغيث والمجير .

قال ـ تعالى ـ : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم لن يفلتوا من عقابه ، فقال : «قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا » .

قال الآلوسي ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية في عبد الله بن أبي وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة . كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك أجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر ، أن ائتونا فإنا ننتظركم . . .

وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، ولوكانوا لحماً لا التهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم . . . » (٢) .

و « قد » للتحقيق ، لأن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء . و « المعوقين » من العوق وهو المنع والصرف . يقال : عاق فلان فلاناً ، إذا صرفه عن الجهة التي يريدها .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٢٩

(٢) تفسير الآلوسي ج ٢١ ص ١٦٣

و « من » فى قوله « منكم » للبيان . والمراد بالأخوة : التطابق والتشابه فى الصفات الذميمة ، والإتجاهات القبيحة ، التى على رأسها كراهيتهم للنبى (صلى الله عليه وسلم) ولأصحابه .

و « هلم » إسم فعل أمر بمعنى أقبل .

والمعنى : إن الله — تعالى — لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين . الذين يخذلون ويثبطون ويصرفون إخوانهم فى النفاق والشقاق ، عن الإشتراك مع المؤمنين ، فى حرب جيوش الأحزاب ، ويقولون لهم : « هلم إلينا » أى : أقبلوا نحونا ، وتعالوا إلى جوارنا . ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين .

وقوله — سبحانه — : « ولا يأتون البأس إلا قليلا » ذم لهم على جبنهم وخورهم .

أى : أن من صفاتهم الأصيلة أنهم جبناء ، ولا يقبلون على الحرب والقتال ، إلا إقبالا قليلا . فهم تارة يخرجون مع المؤمنين ، لإيهامهم أنهم معهم ، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع فى غنيمة .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تصوير ماجبلوا عليه من سوء تصويراً معجزاً ، فقال — تعالى — « أشحة عليكم » جمع شحيح من الشح وهو البخل فى أقبح صورة . ولفظ « أشحة » منصوب على الحال من الضمير فى قوله : « ولا يأتون البأس إلا قليلا » .

أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور ، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم - أيها المؤمنون - فهم لا يعاونونكم فى حفر الخندق ، ولا فى الدفاع عن الحق والعرض والشرف ولا فى أى شىء فيه منفعة لكم .

« فإذا جاء الخوف » أى فإذا اقترب الوقت الذى يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم .

«رأيتهم» - أيها الرسول الكريم - «ينظرون إليك» بجبن وهلع «تدور أعينهم» فى مآقيهم يميناً وشمالا .

وحالهم كحال الذى «يغشى عليه من الموت» أى : كحال الذى أحاط به الموت من كل جانب ، فصار فى أقصى دركات الوهن والخوف والفزع .

هذه هى حالهم عند ما يتوقعون الشدائد والمخاوف ، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف ، فهى كما قال — تعالى — «فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد» .

وقوله «سلقوكم» من السلق . وأصله بسط العضو ومده للأذى سواء أكان هذا العضو يداً أو لساناً . والمراد به الإيذاء بالكلام السىء القبيح .

أى : أنهم عند الشدائد جبناء بخلاء . فإذا ماذهب الخوف وحل الأمان سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء ، ورموكم بألسنة ماضية حادة تؤثر تأثير الحديد فى الشىء ، وارتفعت أصواتهم بعد خفوتها ، وانتفخت أوداجهم بعد ضمورها ، وادعوا أنهم أصحاب البلاء فى القتال ، بعد أن كانوا إذا ماذكر القتال أمامهم ، صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت .

ثم هم بعد ذلك «أشحة على الخير» أى بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئاً منها فى وجه من وجوه الخير والبر .

قال ابن كثير قوله «أشحة على الخير» أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :

أفى السلم أعياراً جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى : هم فى حال المسالمة كأنهم الحمير الأعيار . والأعيار جمع عير :

وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض » (١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مصيرهم فقال : «أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » .

أى : أولئك المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة «لم يؤمنوا» بما يجب الإيمان به إيماناً صادقاً ، بل قالوا بألسنتهم قولا تكذبه قلوبهم وأفعالهم «فأحبط الله ـ تعالى ـ أعمالهم» بأن أبطلها وجعلها هباء منثورا ، وكان ذلك الاحباط على الله ـ سبحانه ـ هيناً يسيرا .

وخص ـ سبحانه ـ يسر إحباط عملهم بالذكر مع أن كل شىء يسير عليه ـ تعالى ـ لبيان أن أعمالهم جديرة بالاحباط والافساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة .

قال صاحب الكشاف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الاحباط ؟ قلت : لا ، لكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ، وأن مايعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا» (٢) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحن فقال : «يحسبون الأحزاب لم يذهبوا . . .» .

أى : أن هؤلاء المنافقين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد رحيل الأحزاب عن المدينة ، مازالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله ـ تعالى ـ قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيرا .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٩٢

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٣٠

وفى هذه الجملة ما فيها من التهكم بالمنافقين ، حيث وصفتهم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا فى جبنهم يعيشون .

ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : « وإن يأت الأحزاب » .

أى : إلى المدينة مرة ثانية .

« يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب » أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادى من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال .

فقوله : « بادون » جمع باد وهو ساكن البادية . يقال : بدا القوم بداء إذا نزحوا من المدن إلى البوادى .

والأعراب : جمع أعرابى وهو من يسكن البادية .

ثم بين - سبحانه - تلهفهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال : « يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » .

أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها عن أخباركم - أيها المؤمنون - حتى لكأنهم غير ساكنين فيها .

ولو كانوا فيكم عند ما يعود الكافرون إلى المدينة - على سبيل الفرض - ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا ينكشف أمرهم انكشافاً تاماً . فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت فى شرح الأحوال القبيحة التى كان عليها المنافقون عند ما هاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذرهم المؤمنون .

• • •

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار ، ساقت

السورة بعد ذلك صورة مشرقة مضيئة للمؤمنين الصادقين ، الذين عند ما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلا . .

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين فى غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانباً من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول سبحانه :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ
ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا
مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ
ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ
يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾
وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . أى : كان لكم قدوة فى النبى (صلى الله عليه وسلم) حيث بذل نفسه لنصرة دين الله ، فى خروجه إلى الخندق ، والأسوة : القدوة . وقرأ عاصم « أسوة » بضم الهمزة والباقون بكسرها ، والجمع أسى وإسى - بضم الهمزة وكسرها . . .» (١) .

يقال : فلان ائتسى بفلان ، إذا اقتدى به ، وسار على نهجه وطريقته .

وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى (صلى الله عليه وسلم) يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه - تعالى - . . . » (٢) .

والذى يقرأ السيرة النبوية الشريفة ، يرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان فى هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة القدوة الحسنة الطيبة فى كل أقواله وأفعاله وأحواله — صلى الله عليه وسلم — .

لقد شارك أصحابه فى حفر الخندق ، وفى الضرب بالفأس ، وفى حمل التراب . بل وشاركهم فى أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب . .

وشاركهم فى تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر . . بل كان — صلى الله عليه وسلم — هو القائد الحازم الرحيم ، الذى يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق . . .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٥٥

(٢) « ابن كثير جـ ٦ ص ٣٩٢

قال ابن إسحاق ماملخصه : وعمل المسلمون فيه - أى فى الخندق - حتى أحكموه ، وار تجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له « جعيل » سماه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمرا ، فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا بعمرو ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «عمرا»، وإذا مروا بظهر قال : « ظهرا » .

ثم قال ابن إسحاق : وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها تحقيق نبوته — ﷺ — فكان فيما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية - أى صخرة عظيمة - ، فشكوا ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها : فو الذى بعثه بالحق نبيا لانهالت - أى : لتفتتت - حتى عادت كالكثيب - أى كالرمل المتجمع - لا ترد فأسا ولا مسحاة . . . »(١) .

وهذه الآية الكريمة وإن كان نزولها فى غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول — صلى الله عليه وسلم — فى جميع أقواله وأفعاله ، كما قال — تعالى — : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . . . » .

والجار والمجرور فى قوله - سبحانه - : « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » متعلق بمحذوف صفة لقوله « حسنة » ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو « حسنة » .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ وما بعدها .

والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين وفوا بعهودهم .

أى : لقد كان لكم - أيها الناس - قدوة حسنة فى نبيكم - صلى الله عليه وسلم - ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان ، الذين يرجون ثواب الله -تعالى- ، ويؤملون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المنتفعون بالتأسى برسولهم - ﷺ - وقوله : « وذكر الله كثيرا » معطوف على « كان » ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول - صلى الله عليه وسلم ثابتة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولمن ذكر الله - تعالى - ذكرا كثيرا ، لأن الملازمة لذكر الله - تعالى - توصل إلى طاعته والخوف منه - سبحانه - .

وجمع - سبحانه - بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسى التام بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يتحقق إلا بهما .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - على سبيل التشريف والتكريم - ما قاله المؤمنون الصادقون عندما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال - تعالى - : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

واسم الإشارة « هذا » يعود إلى ما رأوه من الجيوش التى جاء بها المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك .

أى : وحين رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت نحو المدينة ، لم يهنوا ولم يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا « هذا » الذى نراه من خطر داهم « هو ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه النصر ، وهذا الضيق سيعقبه الفرج ، وهذا العسر سيأتى بعده اليسر .

قال الآلوسي ما ملخصه: وأرادوا بقولهم ذلك، ما تضمنه قوله تعالى: في سورة البقرة: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب».

وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول - كما جاء عن ابن عباس.

وفي رواية عن ابن عباس - أيضاً - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا، أي: في آخر تسع ليال أو عشر، أي: من وقت الاخبار، أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا في الموعد الذي حدده - صلى الله عليه وسلم - قالوا ذلك»(١).

وقوله - تعالى - : «وصدق الله ورسوله» داخل في حيز ماقالوه.

أي: قالوا عندما شاهدوا جيوش الأحزاب: هذا ماوعدنا الله ورسوله، وقالوا - أيضاً - على سبيل التأكيد وقوة اليقين والتعظيم لذات الله، ولشخصية رسوله: وصدق الله ورسوله، أي: وثبت صدق الله - تعالى - في أخباره، وصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - في أقواله.

والضمير في قوله: «ومازادهم إلا إيمانا وتسليما» يعود إلى ما رأوا من جيوش الأحزاب، ومن شدائد نزلت بهم بسبب ذلك.

أي - ومازادهم ماشاهدوه من جيوش الأحزاب، ومن بلاء أحاط بهم بسبب ذلك، إلا إيمانا بقدرة الله - تعالى - ، وتسليما لقضائه وقدره، وأملا في نصره وتأييده.

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا المديح لهم، مديحا آخر فقال: «من

(١) تفسير الآلوسي ج ٢١ ص ١٦٩.

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، والنحب : النذر ، وهو أن يلتزم الإنسان الوفاء بأمر تعهد به .

وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكمل وجه .

وكان رجال من الصحابة قد نذروا ، أنهم إذا صاحبوا رسول الله — ﷺ — فى حرب ، أن يثبتوا معه ، وأن لا يفروا عنه . . .

والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله — تعالى — عليه ، من التأييد لرسوله — صلى الله عليه وسلم — ، ومن الثبات معه فى كل موطن . . .

« فمنهم من قضى نحبه » أى : فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيداً — كحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهما — رضى الله عنهم أجمعين — .

« ومنهم من ينتظر » أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة فى سبيل الله — تعالى — فى الوقت الذى يريده — سبحانه — ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هـــذه الآية وهم مازالو على قيد الحياة .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عمى أنس بن النضر — سميت به — لم يشهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله — ﷺ — غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم أحد .

فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو . أين واها(١) لريح الجنة أجده دون أحد .

قال : فقاتلهم حتى قتل : قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية . فقالت أخته - عمتى الربيع إبنه النضر - فما عرفت أخى إلا ببنانه .

قال : فنزلت هذه الآية : « من المؤمنين رجال . . . » فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه - رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة ،(٢) .

وقوله - تعالى - : « وما بدلوا تبديلا » معطوف على « صدقوا » أى : هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما فى عهودهم مع الله - تعالى - حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله - تعالى - عليه

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هـذا الإبتلاء والإختبار فقال : « ليجزى الله الصادقين بصدقهم .... » .

أى : فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزى الصادقين فى إيمانهم الجزاء الحسن الذى يستحقونه بسبب صدقهم ووفائهم .

« ويعذب المنافقين إن شاء » أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موتهم على نفاقهم .

« أو يتوب عليهم » من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم .

قال الجمل : وقوله : « ويعذب المنافقين إن شاء » جوابه محذوف ،

(١) واها . كلمة تحنن وتلهف قالها أنس لسعد - رضى الله عنهما .

(٢) تفسير إبن كثير جـ ٦ ص ٣٩٥ .

«وكذلك» مفعول «شاء» محذوف - أيضاً - أى: إن شاء تعذيبهم عذبهم.
والمراد بتعذيبهم إماتتهم على النفاق، بدليل العطف فى قوله «أو يتوب عليهم» (١).

«إن الله» - تعالى - «كان» وما زال «غفوراً رحيماً» أى: واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده.

ثم بين - سبحانه - المصير السيىء الذى انتهى إليه الكافرون فقال: «وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً».

أى: ورد الله - تعالى - بفضله وقدرته الذين كفروا منكم - أيها المؤمنون - حالة كونهم متلبسين بغيظهم وحقدهم. دون أن ينالوا أى خير من إتيانهم إليكم، بل رجعوا خائبين خاسرين.

فقوله «بغيظهم» حال من الموصول، والباء للملابسة، وجملة «لم ينالوا خيرا» حال ثانية من الموصول أيضاً.

وقوله: «وكفى الله المؤمنين القتال» بيان للمنة العظمى التى أمتن بها - سبحانه - عليهم.

أى: وأغنى الله - تعالى - بفضله وإحسانه المؤمنين عن متاعب القتال وأهواله بأن أرسل على جنود الأحزاب ريحاً شديدة، وجنوداً من عنده. «وكان الله - تعالى - «قوياً» على أحداث كل أمر يريده «عزيزاً» أى: غالباً على كل شىء.

قال ابن كثير: وفى قوله «وكفى الله المؤمنين القتال» إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش. وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٣١

قال محمد بن إسحق: لما انصرف أهل الخندق عن الخندق، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين، وكان (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة.

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» (١).

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب، ببيان ما حل ببني قريظة من عذاب مهين، بسبب نقضهم لعهودهم فقال: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم».

والصياصي: جمع صيصية وهي كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها. ومنه قيل لقرن الثور صيصية لأنه يدفع به عن نفسه...

أي: وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم، وهم يهود بنو قريظة، أنزلهم من حصونهم، ومكنكم من رقابهم...

«وقذف في قلوبهم الرعب» الشديد منكم، بحيث صاروا مستسلمين لكم، ونازلين على حكمكم...

«فريقاً» منهم «تقتلون» وهم الرجال «وتأسرون فريقاً» آخرهم الذرية والنساء.

«وأورثكم أرضهم» أي: وأورثكم الله - تعالى - أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم «ديارهم» أي حصونهم «وأموالهم» التي تركوها من خلفهم، كنقودهم ومواشيهم.

كما أورثكم «أرضاً لم تطؤها» بعد بقصد القتال وهي أرض خيبر - أو أرض فارس والروم...

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٩٦

وفى هذه الجملة الكريمة « وأرضاً لم تطؤها » بشارة عظيمة المؤمنين ، بأن الله — تعالى — سينصرهم على أعدائهم .

« وكان الله على كل شيء قديرا » لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

أخرج الشيخان عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : لما رجع النبى (صلى الله عليه وسلم) من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل فقال : يامحمد قد وضعت السلاح ، والله ماوضعناه فاخرج إليهم .. فقال النبى (ﷺ) : فإلى أين ؟ قال : ها هنا وأشار إلى بنى قريظة . فخرج النبى (صلى الله عليه وسلم) إليهم » .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال النبى (صلى الله عليه وسلم) يوم الأحزاب ، لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لانصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى . فذكر ذلك للنبى (صلى الله عليه وسلم) فلم يعنف أحدا » (١) .

وبعد أن حاصر المسلمون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم .

وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) له : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » (٢) .

وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثاً جامعاً حكيماً عن غزوة الأحزاب ، فقد ذكرت المؤمنين — أولا — بنعم الله - تعالى — عليهم ،

---

(١) صحيح البخارى : باب مرجع النبى (صلى الله عليه وسلم) من الأحزاب جـ ٥ ص ١٤٢

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٩٧ والآلوسى جـ ٢١ ص ١٧٦

ثم صورت أحوالهم عند ما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم .

ثم حكت ما قاله المنافقون فى تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم فى النفاق ، وما اعتذروا به من أعذار باطلة ، وما جبلوا عليه من أخلاق قبيحة ، على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية .

ثم انتقلت إلى الحديث عن المواقف المشرقة الكريمة التى وقفها المؤمنون الصادقون عندما رأوا الأحزاب ، وكيف أنهم ازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله - تعالى - دون أن يبدلوا تبديلا .

وكما بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم ، ختمت - أيضاً - بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون أن ينالوا خيرا ، ومكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود ...

• • •

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى - بعد هذا الحديث عن غزوة الخندق - إلى بيان التوجيهات الحكيمة التى وجهها الله - تعالى - إلى نبيه (صلى الله عليه وسلم) وإلى أزواجه ، فقال - سبحانه - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ
تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ
لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ
مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا
رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ
وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ
وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ
وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ
كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

وقوله سبحانه يأيها النبي قل لأزواجك.. أمر من الله تعالى لنبيه - ﷺ - أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد في زينة الحياة الدنيا، وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا.

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: قال علماؤنا: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي (ﷺ)، وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل: سألنه شيئاً من عرض الدنيا. وقيل: سألنه زيادة في النفقة.

روى البخاري ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله (ﷺ) فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً حوله نساؤه...

قال: فقال عمر، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة - زوجة عمر - سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها: فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة».

فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول: تسألان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما ليس عنده..

فقلن: والله لا نسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا أبدا ليس عنده...

ثم نزلت هاتين الآيتين. فبدأ - صلى الله عليه وسلم - بعائشة فقال لها: «يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمراً، أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك».

قالت: وماهو يارسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين. فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي!! بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة...

وفعل أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - مثل ما فعلت عائشة (١) .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسوده ، وأم سلمة .

- وأربع من غير قريش - وهن : صفية بنت حى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية - رضى الله عنهن - » .

وقال الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة مدحهن الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن . . . » فقصره الله - تعالى - عليهن ، وهن النسع اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخـــرة . . . » (٢) .

والمعنى : « يأيها النبى قل لأزواجك » اللاتى فى عصمتك « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » .

أى : إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد فى زينتها .

إن كنتن تردن ذلك : « فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » .

قال الجمل : وقوله : «فتعالين» فعل أمر مبنى على السكون ، ونون النسوة

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٦٣

(٢) « الآلوسى ج ٢١ ص ١٨١

خاعل . وأصل هذا الأمر أن يكون الآمر أعلى مكانا من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه ، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل . وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة . والعلاقة هى أن المخبر يدنو إلى من يخبره»(١)

وقوله : «أمتعكن» مجزوم فى جواب الأمر . والمتعة : مايعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعاً ، وقد جعلها - حقاً على المحسنين الذين يبغون رضا الله - تعالى - ، وحسن ثوابه .

وقوله «وأسرحكن» معطوف على ماقبله ، والتسريح : إرسال الشىء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض . ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولاتستطعن الصبر على المعيشة معى ؛ فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه . لأنى سأعطيكن ماهو فوق حقكن .

« وإن كنتن » لا تردن ذلك ، وإنمـــا « تردن الله ورسوله والدار الآخـــرة » .

أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء مع رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن « الله » - تعالى - « أعد للمحسنات

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٣٢

منكن ، بسبب إيمانهن وإحسانهن «أجرا عظيما» لا يعلم مقداره إلا الله — تعالى — .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى ما فيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار . . .

* * *

ثم وجه — سبحانه — الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن في بيوتهن ينزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال — تعالى — :

يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة .

فقوله - سبحانه - «يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين . . .» نداء من الله - تعالى - لهن ، على سبيل الوعظ والارشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن . والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : يانساء النبي - صلى الله عليه وسلم - من يأت منكم بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله — تعالى — لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما . . .

قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ما قبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل

والمرتبة ... وليس لأحد من النساء ، مثل فضل نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة ... ولذلك كان ذم العقلاء للعاصي العالم : أشد منه للعاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ... »(١) .

وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر .

وقوله - سبحانه - : « من يأت منكن بفاحشة ... » جملة شرطية ، والجملة الشرطية لا تقتضى وقوع الشرط ، كما فى قوله - تعالى - : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك .. » وكما فى قوله - سبحانه - : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن - لا تمنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : « وكان ذلك على الله يسيرا » أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شىء .

هذا هو الجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما فى حالة طاعتهن ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٣٦ .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - ، والخضوع والخشوع لذاته .

أى : ومن يقنت منكن - يانساء النبى - لله - تعالى - ، ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وتعمل عملا صالحا -

من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، « وأعتدنا لها » أى : وهيأنا لها زيادة على ذلك رزقا كريما لا يعلم مقداره إلا الله — تعالى — .

وهكذا نرى أن الله — تعالى — قد ميز أمهات المؤمنين ، فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرها ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرها - أيضاً - ، وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مالا يشاهده غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

ثم وجه — سبحانه — إليهن نداء ثانيا فقال : « يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . . . » .

أى : يانساء النبى ، لقد أعطاكن الله — تعالى — من الفضل ومن سمو المنزلة مالم يعط غيركن ، فأنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله — تعالى — ، وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن — سبحانه — عنه .

قال صاحب الكشاف : أحد فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله « لستن كأحد من النساء » ، لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء . أى : إذا استقصيت أمة النساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة

تساويكن فى الفضل والسابقة . . . »(١) .

وجواب الشرط فى قوله « إن اتقيتن » محذوف لدلالة ماقبله عليه . أى : إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء .

قال الآلوسى : قوله « إن اتقيتن » شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء وجوابه محذوف دل عليه المذكور .. والمفعول محذوف . أى : إن اتقيتن مخالفة حكم الله - تعالى - ورضا رسوله - صلى الله عليه وسلم - . والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك . والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من التقوى.. »(٢).

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله — تعالى — وليس بفضل شىء آخر .

ثم نهاهن — سبحانه — عن النطق بالكلام الذى يطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض . . . » .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة — لغير زوجها من الرجال — بطريقة لينة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٣٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٥ .

مثيرة للشهوات والغرائز ، تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها . .

ثم أرشدهن — سبحانه — إلى القول الذى يرضيه فقال : « وقلن قولا معروفا » .

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطقن به بطريقة طبيعية ، بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن — سبحانه — بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال « وقرن فى بيوتكن » .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله «وقرن» قرأه الجمهور - بكسر القاف - من القرار تقول : قررت بالمكان - بفتح الراء - أقر - بكسر القاف - إذا نزلت فيه - والأصل . اقررن - بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفا . . ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . . فصارت الكلمة « قرن » — بكسر القاف — .

وقرأ عاصم ونافع « وقرن » - بفتح القاف - من قررت فى المكان — بكسر الراء - إذا أقمت فيه . . والأصل « إقررن » — بفتح الراء - فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ، وألقيت حركتها على القاف . . فتقول «قرن» — بالفتح للقاف — . . (١) .

والمعنى : الزمن يانساء النبى - صلى الله عليه وسلم - بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور ، هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٧٨ .

أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .

قال بعض العلماء : والحكمة فى هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التى هى من خصائصهن ، ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد فى عهد الطفولة وهى من شأنهن . وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجال أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها الرجال، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام فى البيت والمعيشة»(١)

وقال صاحب الظلال ما ملخصه . والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله - تعالى - ... ولكى يهيىء الإسلام للبيت جوه السليم، ويهيىء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيىء به المثابة نظامها وعطرها وبشاشتها ....

فالأم المكدودة بالعمل وبمقتضياته ، وبمواعيده ... لا يمكن أن تهيىء للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهيىء للطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها .

إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال »(٢)

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا

(١) صفوة البيان فى تفسير القرآن جـ ٢ ص ١٨٣ . لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٥٨٢

وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والأقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لا تقضى إلا بهن . . . بشرط أن يكون خروجهن مصحوبا بالستر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال — سبحانه — بعد هذا الأمر « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

وقوله : « تبرجن » مأخوذ من البرج - بفتح الباء والراء - وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولاغطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج .

وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر . . .

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمور على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها . . .

ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ، كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .

والمعنى : الزمن يانساء النبى بيوتكن ، فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة والوقار ، ولاتبدى إحداكن شيئا أمرها الله — تعالى — بستره وإخفائه ، واحذرن التشبه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن مايثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم إليهن . .

ثم اتبع — سبحانه — هذا النهى ، بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن — عز وجل — فقال :

«وأقمن الصلاة» أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص .

«وآتين الزكاة» التى فرضها الله — تعالى — عليكن . وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

« وأطعن الله ورسوله » أى : فى كل ما تأتين وتتركن ، لا سيما فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه .

وقوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شىء مستقذر . وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

وقوله : « أهل البيت » منصوب على النداء ، أو على المدح . ويدخل فى أهل البيت هنا دخولا أوليا : نساؤه (صلى الله عليه وسلم) بقرينة سياق الآيات .

أى : إنما يريد الله — تعالى — بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبتلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت . . . » .

هذا نص فى دخول أزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أهل البيت هاهنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية . .

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد اعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد — بسنده — عن أنس بن مالك قال : « إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت . ثم يتلو هذه الآية . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت .

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله — تعالى - فى زوجة إبراهيم : قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت»

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية ، فهو أحاديث جاءت عن النبى (ﷺ) أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين — رضى الله عنهم —: إنهم أهل البيت ، ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا » .

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) ولعلى وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير فى قوله : « ليذهب عنكم الرجس » وفى قوله : « ويطهركم تطهيرا » ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) لقيل ليذهب عنكن ويطهركن ؟

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث فى هذا المعنى .

فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها . .

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل ، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله — تعالى — فى موسى « فقال لأهله امكثوا » ، وقوله « سآتيكم » والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد . .

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة » (١) .

ثم ختم — سبحانه — هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . . . » .

أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذكرن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ . .

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى (ﷺ) وأفعاله وتقريراته .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهن — وقد خصهن الله — تعالى — بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة — أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن .

« إن الله كان لطيفا خبيرا » أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

• • •

(١) أضواء البيان جـ٦ صـ٥٧٧ للشيخ محمد أمين الشنقيطى - رحمه الله -

وبعد هذه التوجيهات الحكيمة لأمهات المؤمنين ، ساق - سبحانه - توجيهاً جامعاً لأمهات الفضائل ، وبشر المتصفين بهذه الفضائل بالمغفرة والأجر العظيم . فقال — تعالى — : « إن المسلمين والمسلمات »

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما ، عن أم سلمة — رضي الله عنها — قالت : قلت للنبي (ﷺ) : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم إلا نداءه على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية : « إن المسلمين والمسلمات . . . » .

وأخرج الترمذي وغيره عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرون بشيء ، فنزلت هذه الآية .

وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم)فقلن: قد ذكركن الله — تعالى — في القرآن ، ومايذكرنا بشيء . أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله — تعالى — هذه الآية (١) .

والمعنى : « إن المسلمين والمسلمات » والإسلام هو الانقياد لأمر الله — تعالى — وإسلام الوجه له - سبحانه - وتفويض الأمر إليه وحده .

« والمؤمنين والمؤمنات » والإيمان هو التصديق القلبي ، والإذعان الباطني ، لما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) .

« والقانتين والقانتات » ، والقنوت هو المواظبة على فعل الطاعات من رضا واختيار .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ص ٢١

«والصادقين والصادقات» والصدق هو النطق بما يطابق الواقع والبعد عن الكذب والقول الباطل .

« والصابرين والصابرات » والصبر هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات .

« والخاشعين والخاشعات » والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح فى حالة انقياد تام لله - تعالى - ، ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته .

«والمتصدقين والمتصدقات» والتصدق تقديم الخير إلى الغير بإخلاص، دفعاً لحاجته ، وعملاً على عونه ومساعدته .

« والصائمين والصائمات » والصوم هو تقرب إلى الله - تعالى - ، واستعلاء على مطالب الحياة ولذائذها ، من أجل التقرب إليه - سبحانه - بما يرضيه .

« والحافظين فروجهم والحافظات » وحفظ الفرج كناية عن التعفف والتطهر والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله الله - تعالى - .

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » وذكر الله - تعالى - يتمثل فى النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه - عز وجل - وتحميده وتكبيره . .

وفى شعور النفس فى كل لحظة بمراقبته - سبحانه -

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء «أعد الله» تعالى - «لهم مغفرة» واسعة لذنوبهم «وأجرا عظيما» لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل -

وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة التي من شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصفا بها ، أن يسعدا في دنياهما وفي أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذي يعيشان فيه .

إنها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبغيره ، تنظيما حكيما ، يهدي إلى الرشد ، ويوصل إلى الظفر والنجاح .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه — عز وجل — ونحو رسوله — صلى الله عليه وسلم — ، وعن تأكيد إبطال عادة التبني التي كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة لهذا الإبطال ، وعن علاقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بغيره من أتباعه .

فقال ـ تعالى ـ :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » روايات منها : أنها نزلت فى زينب بنت جحش ـ رضى الله

عنها - ، خطبها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لزيد بن حارثة فاستنكفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية».

وفى رواية أنها قالت : يا رسول الله ، لست بناكحته ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « بل فانكحيه » فقالت : يا رسول الله ، أؤامر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله — تعالى — هذه الآية. فقالت : يا رسول الله ، قد رضيته لى زوجا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا أعصى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قد زوجته نفسى .

وذكر بعضهم أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى بعد صلح الحديبيه - ، فوهبت نفسها النبى (صلى الله عليه وسلم) فزوجها من مولاه زيد بن حارثة - بعد فراقه لزينب فسخطت هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد»(١)

قال ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء ، فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال - تعالى - : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وفى الحديث الشريف : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

والمعنى : لا يصح ولا يحل لأى مؤمن ولا لأية مؤمنة « إذا قضى الله

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ١٨٦ ، وتفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤١٧

ورسوله ، أى : إذا أراد الله ورسوله ، أمرا ، من الأمور .

وقال ـ سبحانه ـ : « إذا قضى الله ورسوله أمرا » للإشعار ، بأن مايفعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنما يفعله بأمر الله ـ تعالى ـ ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) لا ينطق عن الهوى .

وقوله : « أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » أى : لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمراً ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره (صلى الله عليه وسلم) ، وأن يجعلوا رأيهم تابعاً لرأيه فى كل شىء .

وكلمة الخيرة : مصدر من تخير ، كالطيرة مصدر من تطير ، وقوله : « من أمرهم » متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالا منها .

وجاء الضمير فى قوله «لهم» وفى قوله «من أمرهم» بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظى مؤمن ومؤمنة وقعا فى سياق النفى ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » ، بيان لسوء عاقبة من يخالف أمر الله ورسوله .

أى : ومن يعص الله ورسوله فى أمر من الأمور ، فقد ضل عن الحق والصواب ضلالا واضحاً بيناً .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ قصة زواج النبى (ﷺ) من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية ، فقال ـ تعالى ـ : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه . . . » أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن قلت للذى أنعم الله ـ تعالى ـ عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ

« وأنعمت عليه » بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام . . .

« أمسك عليك زوجك واتق الله » أي : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله في أمرها ، واصبر على ما بدر منها في حقك . . :

وكان زيد - رضي الله عنه - قد اشتكى للنبي - صلى الله عليه وسلم - من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يارسول الله ، إني أريد أن أطلقها .

وقوله - تعالى - : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » معطوف على « تقول » . أي : تقول له ذلك وتخفي في نفسك الشيء الذي أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله - عز وجل - .

قال الآلوسي : والمراد بالموصول « ما » على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين ما أوحى الله - تعالى - به إليه من أن زينب سيطلقها زيد ، ويتزوجها هو - صلى الله عليه وسلم - .

وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم »(١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » جملة : الله مبديه صلة الموصول الذي هو « ما » . وما أبداه - سبحانه -

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ص ٢٤ .

من زواجه - صلى الله عليه وسلم - بزينب ، وذلك فى قوله - تعالى - : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » ، وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه — صلى الله عليه وسلم — .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - صلى الله عليه وسلم وأبداه الله - تعالى - ، هو وقوع زينب فى قلبه - صلى الله عليه وسلم - ومحبته لها ، وهى زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحان مقلب القلوب ... إلى آخر ما قالوا ... كله لا صحة له ... »(١) .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - هاهنا آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها . فلا نوردها ... »(٢) .

هذا ، ولفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى فى معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه ، وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها ...

وما أبداه الله — تعالى - : هو علم الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها . .

فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجه زينب لوجود التنافر بينهما ... مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة . . .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٦ ص ٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٢٠ .

ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة ما يدل دلالة صريحة على أن الله قد أوحى إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - سيتزوجها ، كل ما ورد فى ذلك هى الملك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

قال صاحب الظلال : وهذا الذى أخفاه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله ، ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . وجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه ولكنه - صلى الله عليه وسلم - كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه ، فطلق زيد زوجه فى النهاية . وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد . . . »(١)

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدما تاما كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .

وقوله - سبحانه - : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول له ما قلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٢ ص ٥٩٥ .

وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من زواجه - صلى الله عليه وسلم - بزينب فقال : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا » .

والوطر : الحاجة ، وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشىء ، يقال : قضى فلان وطره من هذا الشىء ، إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى فى مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، « لكى لا يكون على المؤمنين حرج » أو ضيق أو مشقة « فى أزواج أدعيائهم » أى : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم « إذا قضوا منهن وطرا » أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على آباء هؤلاء الأدعياء . أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة .

« وكان أمر الله مفعولا » أى : وكان ما يريده الله - تعالى - حاصلا لا محالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ... » أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله - عز وجل - . بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . . .

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لزيد بن حارثة . « اذهب فاذكرها على »

فانطلق حتى آتاها وهى تخمر عجينها . قال . فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها . وجعلت أقول - وقد وليتها ظهرى، ونكصت على عقبى - يا زينب - أبشرى . أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكرك قالت : ما أنا بصانعه شيئا حتى أؤامر ربى - أى : أستشيره فى أمرى - ، فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليها بغير إذن . . .

وروى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى - ﷺ - فتقول « زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات . . . »(١) .

وقال الإمام الشوكانى : وقوله . « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم . . . » .

أى : فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون . . . وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم عليهم نساء أبنائهم على الحقيقة ، والأدعياء : جمع دعى، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة . فأخبرهم الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف الأبناء من الصلب، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها . . . »(٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسيدة زينب بنت جحش ، التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة - الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٠ .

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٣٨٥ .

فى تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزالة كل ماعلق بالأذهان بشأنها، فقال - تعالى - : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له . . . » .

أى : ما كان على النبى — صلى الله عليه وسلم — من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمر به من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبنى زيد بن حارثه فقوله : « فيما فرض الله له » أى : فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى : قدر له هذا الشىء ، وجعله حلالا له .

وقوله - تعالى - « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا » زيادة فى تأكيد هذه الحكمة ، وفى تقرير صحة مافرضه الله - تعالى - لنبيه — صلى الله عليه وسلم — .

أى : ما فعله الرسول — ﷺ — من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله — تعالى - سنة من سننه فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله — تعالى — قدرا مقدورا . أى : واقعا لا محالة .

والقدر : إيجاد الله - تعالى - للأشياء على قدر مخصوص حسبما تقتضى حكمته .

ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهى عليه . وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر . والأظهر أن قدر الله - تعالى - هنا بمعنى قضائه .

ولفظ « مقدورا » وصف جىء به للتأكيد ، كما فى قولهم : ظل ظليل ، وليل أليل . ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : « الذين يبلغون رسالات الله » التى يكلفهم — سبحانه — بتبليغها . والموصول فى محل جر صفة « للذين خلوا » . أو منصوب على المدح .

« ويخشونه » أى : ويخافونه وحده « ولا يخشون أحــدا إلا الله » — عز وجل — فى كل ما يأتون وما يذرون، وما يقولون وما يفعلون.

« وكفى بالله حسيبا » أى : وكفى بالله — تعالى — محاسبا لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم، وأقوال ألسنتهم.

ثم حدد — سبحانه — وظيفة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأثنى عليه بما هو أهله، فقال - تعالى - : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » أى: لم يكن محمد - صلى الله عليه وسلم - أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقية، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث، والنفقة، والزواج.. وزيد كذلك ليس ابنا له — صلى الله عليه وسلم — فزواجه — ﷺ — بزينب التى طلقها زيد لا حرج فيه، ولا شبهة فى عدم صحته وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » استدراك لبيان وظيفته وفضله.

أى : لم يكن - صلى الله عليه وسلم - أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة، ولكنه كان رسولا من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكان - أيضاً - خاتم النبيين، بمعنى أنهم ختموا به، فلا نبى بعده، فهو كالخاتم والطابع لهم. ختم الله - تعالى - به الرسل والأنبياء، فلا رسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة.

قال القرطبى : قرأ الجمهور « وخاتم » - بكسر التاء - بمعنى أنه ختمهم، أى : جاء آخرهم.

وقرأ عاصم « وخاتم » - بفتح التاء - بمعنى أنهم ختموا به، فهو كالخاتم والطابع لهم.

وقيل : الخاتم والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان، مثل طابع وطابع..

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: مثلى ومثل الأنبياء من قبلى، كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها، إلا موضع

لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار، هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء »(١) :

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها مارواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: فضلت على الأنبياء بست :أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة . وختم بى النبيون » .

ثم قال ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بالعباد إرسال محمد ـ ﷺ ـ إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر ـ تعالى ـ فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم . . . »(٢) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « وكان الله بكل شىء عليما » .

أى : وكان ـ عز وجل ـ ومازال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويضرهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم ـ سبحانه ـ من فضله وإحسانه .

* * *

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٩٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٤ .

ثم جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره، فأمرت المؤمنين بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتحميده وتكبيره، فقال - سبحانه - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ
سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ
وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن
تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

والمقصود بذكر الله - تعالى - فى قوله : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا »، ما يشمل التهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك من الأقوال والأفعال التى ترضيه - عز وجل - .

أى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، أكثروا من التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بما يرضيه ، فى كل أوقاتكم وأحوالكم فإن ذكر الله ـ تعالى ـ هو طب النفوس ودواؤها ، وهو عافية الأبدان وشفاؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور .

والتعبير بقوله : « اذكروا الله ذكراً كثيراً » يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة .

ومن الأحاديث التى وردت فى الحض على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ـ أى : الفضة ـ ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وماهو يارسول الله ؟ قال : ذكر الله ـ عز وجل ـ .

وعن عمرو بن قيس قال : سمعت عبدالله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أحدهما : يارسول الله ، أى الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله .

وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبث به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله » .

وقال ابن عباس : لم يفرض الله ـ تعالى ـ فريضة إلا جعل لها حداً معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله ـ تعالى ـ لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحد فى تركه إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال ـ تعالى ـ : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. » وقال ـ سبحانه ـ : « فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم . . » أى : بالليل وبالنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ،

والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .»(١)

وقوله : «وسبحوه بكرة وأصيلا» معطوف على «اذكروا» . والتسبيح: التنزيه . مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أوفى الهواء . فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، والبكرة : أول النهار ، والأصيل : آخـــره :

أى : أكثروا — أيها المؤمنون — من ذكر الله — تعالى — فى كل أحوالكم ، ونزهوه — سبحانه — عن كل مالا يليق به ، فى أول النهار وفى آخره .

وتخصيص الأمر بالتسبيح فى هذين الوقتين ، لبيان فضلهما ، ولمزيد الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح فى غير هذين الوقتين له ثوابه العظيم عند الله — تعالى — .

— وأيضا — خص — سبحانه — التسبيح بالذكر مع دخوله فى عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه .

قال صاحب الكشاف : «والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختصه تعالى من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . .» (٢) .

وقوله — سبحانه — : «هو الذى يصلى عليكم وملائكته . .» استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر بالإكثار من الذكر ومن التسبيح .

والصلاة من الله — تعالى — على عباده معناها : الرحمة بهم ، والثناء

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٦

(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٥

عليهم . كما أن الصلاة من الملائكة على الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة .

قال القرطبي : قوله – تعالى – : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ..» قال ابن عباس : لما نزل : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ..» قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يارسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شيء ، فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال القرطبي : قلت : وهذه نعمة من الله – تعالى – على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

والصلاة من الله على العبد هي رحمته له ، وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال – تعالى – : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » (١) .

وقوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » متعلق بقوله « يصلي » أي : يرحمكم – سبحانه – برحمته الواسعة ، ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكي يخرجكم بفضله ومنته ، من ظلمات الضلال والكفر إلى نور الهداية والإيمان .

« وكان » – سبحانه – وما زال « بالمؤمنين رحيما » رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة .

أما رحمته لهم في الدنيا فمن مظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم وأما رحمته – سبحانه – لهم في الآخرة فمن مظاهرها : أنهم يأمنون من الفزع الأكبر .

(١) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ١٩٨

وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال : أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ قالوا : لا . قال : فوالله لله ارحم بعباده من هذه بولدها .

ثم بين — عز وجل — ما أعده للمؤمنين فى الآخرة فقال : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » .

والتحية : أن يقول قائل للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حياة طيبة .

وهذه التحية للمؤمنين فى الآخرة ، تشمل تحية الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله — سبحانه — : « سلام قولا من رب رحيم » (١) .

وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما فى قوله - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٢) .

كما تشمل تحية بعضهم لبعض كما فى قوله - عز وجل - : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» (٣) .

أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله - تعالى - فى الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل ما يفزعهم أو يخيفهم أو يزعجهم . .

« وأعد لهم » — سبحانه — يوم القيامة « أجرا كريما » هو الجنة التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

• • •

(١) سورة يس . الآية .

(٢) « الرعد الآية ٢٢ ، ٢٣

(٣) « يونس . الآية ١٠

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقوله : (مبشراً) من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : (ونذيرا) من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف لكى يجتنب ويحذر .

والمعنى : يأيها النبى الكريم (إنا أرسلناك) إلى الناس (شاهدا) أى : شاهداً لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغاً تاماً كاملا .

(ومبشراً) أى : (ومبشراً المؤمنين منهم برضا الله — تعالى — .

(ونذيرا) أى : ومنذراً للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذى جئتهم به من عند الخالق — عز وجل — .

وقدم — سبحانه — التبشير على الإنذار ، تكريماً للمؤمنين المبشرين ، وإشعاراً بأن الأصل فى رسالته - صلى الله عليه وسلم - التبشير ، فقد أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وقوله : (وداعيا إلى الله بإذنه) أى : وأرسلناك - أيضا - داعيا الناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه - سبحانه - وبأمره وبتيسيره .

فالتقييد بقوله (بإذنه) لبيان أنه - ﷺ - لم يدع الناس إلى مادعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له - سبحانه - ، من تلقاء نفسه ، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله - تعالى - وإذنه ومشيئته ، وللإشارة إلى أن هذه

الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله - تعالى - للنفوس بقبولها .

وقوله : « وسراجا منيرا » معطوف على ما قبله . والسراج : المصباح الذى يستضاء به فى الظلمات .

أى : وأرسلناك - أيها الرسول الكريم - بالدين الحق ، لتكون كالسراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، ويخرجون بسببه من الظلمات إلى النور .

ووصف السراج بالإنارة ، لأن من المصابيح مالا يضىء إذا لم يوجد به ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه .

قال صاحب الكشاف : « جلى الله -تعالى- بنبيه - صلى الله عليه وسلم - ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج مالا يضىء إذا قل سليطه - أى : زيته - ودقت فتيلته . . . »(١) .

وبعد أن وصف الله -تعالى- رسوله -صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفات الكريمة ، أتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنهيه عن طاعة الكافرين ، فقال - تعالى- : «وبشر المؤمنين . . » أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك . وبشر المؤمنين منهم « بأن لهم من الله » - تعالى - فضلا كبيراً ، أى : عطاء كبيراً ، وأجراً عظيما ، ومنزلة سامية بين الأمم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٤٧ .

« ولا تطع الكافرين والمنافقين » فيما يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، أو من عدم بيان ما هم عليه من باطل وجهل ، بل أثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض فى تبليغ دعوتك دون أن تخشى أحدا إلا الله — تعالى — .

« ودع أذاهم » أى : ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى ، بسبب دعوتك إياهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصيبك منهم حتى يحكم الله — تعالى — بحكمه العادل بينك وبينهم .

« وتوكل على الله » فى كل أمورك « وكفى بالله » - تعالى - « وكيلا » توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون . . .

هذا ، ومن الأحاديث النبوية التى اشتملت على بعض المعانى التى اشتملت عليها هذه الآيات ، ما رواه الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للمؤمنين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظا ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله - تعالى - حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا »(١) .

* * *

ثم عادت السورة الكريمة - بعد هذا الحديث الجامع عن وظيفة الرسول

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٤٧ .

– صلى الله عليه وسلم – وعن فضله – إلى الحديث عن جانب من أحكام الزواج والطلاق، فقال – تعالى –: يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات

والمراد بالنكاح هنا فى قوله (إذا نكحتم) العقد، لأن الحديث فى حكم المرأة التى تم طلاقها قبل الدخول بها .

وهذا الحكم شامل للمؤمنات ولغيرهن كالكتابيات، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر، للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة .

والعدة: هى الشىء المعدود . وعدة المرأة معناها: المدة التى بانقضائها يحل لها الزواج من شخص آخر، غير الذى كان زوجا لها .

والمعنى: يا من آمنتم بالله – تعالى – حق الإيمان، (إذا نكحتم المؤمنات) أى: إذا عقدتم عليهن عقد النكاح، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن .

(ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى: ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن .

قال الآلوسى: وفائدة المجىء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة، إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخى الطلاق، له دخل فى إيجاب العدة، لاحتمال الملاقاة والجماع سرا .. (١) .

أى: أن الحكم الذى اشتملت عليه الآية الكريمة، ثابت سواء تم الطلاق بعد عقد الزواج مباشرة، أم بعده بمدة طويلة .

وفى التعبير عن الجماع بالمس كناية لطيفة . من شأنها أن تربى فى الإنسان حسن الأدب، وسلامة التعبير، وتجنب النطق بالألفاظ التى تخدش الحياء

وقوله : « فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » جواب إذا ، وبيان الحكم المترتب على طلاق المرأة قبل الدخول بها .

أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فلا عدة عليهن ، بل من حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون التقيد بأية مدة من الزمان .

قال الجمل : وقوله : « تعتدونها » صفة لعدة . وتعتدونها تفتعلونها ، إما من العدد ، وإما من الاعتداد ، أى : تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك : عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى : فاستوفى عددها . . (١) .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن المطلقة قبل الدخول بها لا عدة عليها إطلاقا بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول بها فعليها العدة إجماعا .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا » بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه ، بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها .

وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك . ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبرا لخاطرها ، وتعويضا لها عما نالها بسبب هذا الفراق .

وأصل التسريح . أن ترعى الإبل السرح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم أطلق على كل إرسال فى الرعى ، ثم على كل إرسال وإخراج .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٤٣ .

والتسريح الجميل : هو الذى لا ضرر معه . وإنما معه الكلام الطيب ، والفعل الحسن .

والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من المال ما يجبر خاطرهن ، وما يكون عوضا عن فراقهن . . . وأطلقوا سراحهن ليستأنفن حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن العقلاء أن يعاشروا أزواجهن بالمعروف، وأن يفارقوهن ـ أيضا ـ بالمعروف.

ومن العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر يقتضى الوجوب .

وقد بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفو اقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير»(١) .

والملاحظ أن الآية الكريمة التى معنا ، قد أضافت حكما جديدا، وهو أنه لا عدة على المطلقة قبل الدخول بها .

ومن مجموع هذه الآيات ، نرى أحكم التشريعات، وأسمى التوجيهات.

* * *

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ٧١٣ وما بعدها .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله عليه، وتكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره. فقال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

والمراد بالأجور فى قوله - سبحانه - : « يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن... » المهور التى دفعها - صلى الله عليه وسلم لأزواجه ..

قال ابن كثير : يقول — تعالى — مخاطباً نبيه — صلوات الله وسلامه عليه — بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور ها هنا . كما قاله مجاهد وغير واحد .

وقد كان مهره — صلى الله عليه وسلم — لنسائه : اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية . الجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى — رحمه الله — بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها » .

وفى قوله : « آتيت أجورهن » إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شىء منه ، هو الأكمل والأفضل ، وأن تأخير شىء منه إنما هو أمر مستحدث ، لم يكن معروفا عند السلف الصالح . .

وأطلق على المهر أجر لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقال الأجر بالمنفعة .

وقوله : « وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك » بيان لنوع آخر مما أحله الله — تعالى — لنبيه — صلى الله عليه وسلم — .

والمعنى : يأيها النبى إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف لك ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتى أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة وغيرهما - ، لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللاتى دخلن فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب ، كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث

ثم بين - سبحانه - نوعاً ثالثاً أحله - سبحانه - له فقال : « وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك » .

أى : وأحللنا لك — أيضاً — الزواج بالنساء اللاتى تربطك بهن قرابة من جهة الأب، أو قرابة من جهة الأم .

وقوله : « اللاتى هاجرن معك » إشارة إلى ما هو أفضل، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .

والمراد بالمعية هنا . الاشتراك فى الهجرة . لا المصاحبة فيها، لما فى قوله — تعالى — حكاية عن ملكة سبأ : « قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

قال بعض العلماء : وقد جاء فى الآية الكريمة عدة قيود، ما أريد بواحد منها إلا التنبيه على الحالة الكريمة الفاضلة .

منها : وصف النبى (صلى الله عليه وسلم) باللاتى آتى أجورهن، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا دون أن يتأخر منه شىء .

ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفىء، فإن المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشترى من الجلب، لأن المملوكة عن طريق الغنيمة تكون معروفة الحال والنشأة .

ومنها : قيد الهجرة فى قوله : « اللاتى هاجرن معك »، ولاشك أن من هاجرت مع النبى (صلى الله عليه وسلم) أولى بشرف زوجية النبى (صلى الله عليه وسلم) ممن عداها »(١) .

ثم بين — سبحانه — نوعاً رابعاً من النساء، أحله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) فقال : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى، إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين . . » .

والجملة الكريمة معطوفة على مفعول « أحللنا » .

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج٤ ص٢٢ للمرحوم الشيخ محمد على السايس

وقد اشتملت هذه الجملة على شرطين ، الثانى منهما قيد للأول ، لأن هبتها نفسها له (صلى الله عليه وسلم) لا توجب حلها له إلا بقبوله الزواج منها

وقوله «يستنكحها» بمعنى ينكحها . يقال : نكح واستنكح ، بمعنى عجل واستعجل ، ويجوز أن يكون بمعنى طلب النكاح .

وقوله : «خالصة» منصوب على الحال من فاعل «وهبت» أى : حال كونها خالصة لك دون غيرك . أو نعت لمصدر مقدر . أى : هبة خالصة .

والمعنى . وأحللنا لك كذلك امرأة مؤمنة ، إن ملكتك نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولى ومهر .

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له (صلى الله عليه وسلم) : خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر ، وليلى بنت الحطيم . .

وقد اختلف العلماء فى كونه (صلى الله عليه وسلم) قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا .

والأرجح أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يتزوج بواحدة منهن ، وإنما زوجهن لغيره . ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد السعدى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاءته امرأة فقالت : يارسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال: يارسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل عندك من شىء تصدقها إياه ؟ فقال : ماعندى إلا إزارى هذا . فقال (صلى الله عليه وسلم) : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً فقال : لا أجد شيئاً . فقال : التمس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئاً فقال له النبى (صلى الله عليه وسلم) : هل معك من القرآن شىء ؟ قال نعم ،

سورة كذا وسورة كذا — لسور يسميها — ، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « زوجتكها بما معك من القرآن » (١) .

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه (صلى الله عليه وسلم) فى الزواج من هذه الأصناف ، والإباحة له فى أن يختار منهن من تقتضى الحكمة للزواج منها ، واختصاصه (صلى الله عليه وسلم) بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد سواه .

ولهذا قال — سبحانه — بعد ذلك : « قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم . . » فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه (صلى الله عليه وسلم) بأمور فى النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر ، إن قبل ذلك العرض منها .

أى : هذا الذى أحللناه لك — أيها الرسول الكريم — هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال به ، كما لا يجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله — تعالى — به ، على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا — أيضاً — ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه . لا ممن لا يجوز سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين

وقوله : « لكى لا يكون عليك حرج » متعلق بقوله : « أحللنا » وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى .

أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات ، والأقارب ،

(١) صحيح البخارى «كتاب النكاح » ج ٧ ص ١٧

والواهبة نفسها لك ، لنـــدفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكي لا يكون عليك حرج في البحث عنه .

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بيناه من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما نفعـــله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : « وكان الله غفورا رحيما » ، أى : وكان الله — تعالى — وما زال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله — عز وجل — : « ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء » شروع في بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها — سبحانه — لنبيه (صلى الله عليه وسلم) في معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : « ترجى » من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرىء مهموزا وغير مهموز ، تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحيته جانباً حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : « تؤوى » من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ومنه قوله - تعالى - : « ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . . . » أى : ضمه إليه وقربه منه .

والضمير في قوله « منهن » يعود إلى زوجاته (صلى الله عليه وسلم) اللائى كن في عصمته .

قال القرطبي ما ملخصه : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها : التوسعة على النبى (صلى الله عليه وسلم) في ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته .

وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت: كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأقول: أوتهب المرأة نفسها لرجل؟ فلما أنزل الله — تعالى —: «ترجى من تشاء منهن ...».

قالت: قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك.

قال ابن العربى: هذا الذى ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعول عليه. والمعنى المراد: هو أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان مخيرا فى أزواجه، إن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك. لكنه كان يقسم من جهة نفسه، تطييباً لنفوس أزواجه.

وقيل كان القسم واجباً عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية.

وقيل: الآية فى الطلاق. أى: تطلق من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء.

وقيل: المراد بالآية: الواهبات أنفسهن له (صلى الله عليه وسلم).

ثم قال القرطبى: وعلى كل معنى، فالآية معناها التوسعة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والإباحة، وما اخترناه أصح والله أعلم»(١).

أى: لقد وسعنا عليك — أيها الرسول الكريم — فى معاشرة نسائك، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن، وأن تضم إليك من شئت منهن، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن، كما هو الشأن بالنسبة لأتباعك، حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيتوتة وما يشبهها.

ومع هذا التكريم من الله — تعالى — لنبيه، إلا أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه ما عدا السيدة سودة، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢١٤.

أخرج البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن . . .) .

فقيل لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت: كنت أقول : إن كان ذاك إلى فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً)(١) .

وقوله - تعالى - : (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) . زيادة فى التوسعة عليه - صلى الله عليه وسلم - وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .

أى : أعطناك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نسائك ، وأن تترك القسمة بينهن ، وأعطنا لك - أيضاً - أن تعود إلى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذ لا حرج عليك فى كل ذلك ، بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .

فالابتغاء بمعنى الطلب وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت و(من) شرطية ، وجوابها : (فلا جناح عليك) أى : فلا حرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين أزواجك ، وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .

قال الشوكانى : والحاصل أن الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - كى يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه . .)(٢) .

واسم الإشارة فى قوله : (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن . . .) يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الارجاء والايواء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وأدنى بمعنى أقرب . و (تقر أعينهن) كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٧

(٢) تفسير فتح القدير ج ٦ ص ٢٩٣ .

وارتياح نفس . يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون . .

وقوله : (ولا يحزن) معطوف على (أن تقر) وقوله (ويرضين) معطوف عليه — أيضاً — .

والمعنى، ذلك الذي شرعناه لك من تفويض الأمر إليك في شأن أزواجك، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحي من الله - تعالى - وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن في القسم والبيتوتة والمجامعة . . أم لم تسو .

قال القرطبي : قال قتادة وغيره : أي : ذلك التخيير الذي خير ناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا - لا من عندك - ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين . .

وكان — عليه الصلاة والسلام — مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : (اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)(١) .

وقوله - سبحانه - : (والله يعلم ما في قلوبكم) خطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع جمع الذكور للتغليب .

أي : والله - تعالى - يعلم ما في قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شيء ، ومن عدم الميل إلى شيء آخر .

قال صاحب الكشاف: وفي هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى - من ذلك ، وبعث على تواطيء قلوبهن والتصافي بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وما فيه طيب نفسه(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٤ صـ ٢١٦ (٢) تفسير الكشاف جـ٣ صـ٥٥٢ .

(وكان الله) ـ تعالى ـ (عليما) بكل ما تظهره القلوب وما تسره (حليما) حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .

ثم كرم ـ سبحانه ـ أمهات المؤمنين ، بعد تكريمه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (لا يحل لك النساء من بعد . .) .

أى : لا يحل لك ، أيها الرسول الكريم ـ أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع اللائى فى عصمتك اليوم ، لأنهن قد إخترنك وآثرنك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعش معك وتحت رعايتك، مهما كان فى حياتك معهن من شظف العيش ، والزهد فى متع الدنيا .

وقوله : (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك) معطوف على ما قبله .

أى : لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك، كما لا يحل لك ـ أيضاً ـ أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه الآية .

فالآية الكريمة قد إشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائى كن فى عصمته عند نزولها والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن، للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : (بعد) ظرف مبنى الضم لحذف المضاف إليه أى : من بعد اليوم ، و (أزواج) مفعول به ، و (من) مزيدة لإستغراق الجنس . أى : ولا أن تبدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء الأخريات .

وجملة : (ولو أعجبك حسنهن) فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى (تبدل) . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ولا أن تتبدل بهن أزاوجا غيرهن فى أية حالة من الأحوال ، حتى ولو فى حال إعجابك بغيرهن ، ويصح أن تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لفهمه من الكلام ، ويكون المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن .

وقوله : (إلا ما ملكت يمينك) إستثناء من هذا الحكم . أى : لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا إستبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف إليهن ما شئت من النساء اللاتى تملكهن عن طريق السبى .

وهذا الذى سرنا عليه من أن الآية الكريمة فى شأن أزواجه - صلى الله عليه وسلم - هو الذى سار عليه جمهور المفسرين .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم - أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن ، فى إختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تقدم ، فلما إخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرارى ، فلا حجر عليه فيهن .

ثم إنه - سبحانه ، رفع عنه الحجر فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهن ، لتكون المنة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهن روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ما مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أحل الله له النساء)(1) .

ومن العلماء من يرى أن قوله - تعالى - (من بعد) المراد به : من بعد من أحللنا لك الزواج بهن ، وهن الأصناف الأربعة اللاتى سبق الحديث عنهن فى قوله - تعالى - يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك وبنات عماتك . .) .

وهذا الرأى الثانى وإن كان أشمل من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

هذا ، والنساء التسع اللاتى حرم الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم -

الزيادة عليهن، والاستبدال بهن، هن: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب، وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث(١).

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: «وكان الله على كل شيء رقيبا».

أي: وكان الله - تعالى - وما زال، مطلعا على كل شيء من أحوالكم - أيها الناس - فاحذروا أن تتجاوزوا ما حده الله - تعالى - لكم، لأن هذا التجاوز يؤدي إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ومن توسعته عليه في شأن أزواجه، وفي شأن ما أحله له من عدم التقيد في القسم بينهن، وفي تقديم أو تأخير من شاء منهن..

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما، لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها.

* * *

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٣٨

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من التشريعات الحكيمة ، والآداب الكريمة ، التى تتعلق بدخول بيوت النبى — صلى الله عليه وسلم — وبحقوق أزواجه — صلى الله عليه وسلم — فى حياته وبعد مماته ، وبوجوب احترامه وتوقيره — صلى الله عليه وسلم — فقال — تعالى — :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله — تعالى — « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى . . » روايات متعددة منها ، ما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث . فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله — تعالى — : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقلت :

يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر . فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى (صلى الله عليه وسلم) لما تمالأن عليه فى الغيرة ، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فنزلت كذلك .

وروى البخارى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : لما تزوج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام (صلى الله عليه وسلم) قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى (صلى الله عليه وسلم) ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبى (صلى الله عليه وسلم)أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله — تعالى — : «يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى . . . الآية » .

قال ابن كثير : وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بزينب بنت جحش ، التى تولى الله — تعالى — تزويجها بنفسه ، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة ، فى قول قتادة والواقدى وغيرهما (١) .

والمراد ببيوت النبى : المساكن التى أعدها (صلى الله عليه وسلم) لسكنى أزواجه .

والإستثناء فى قوله — تعالى — : « إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٠ — ط دار الشعب

ناظرين إناه ، استثناء مفرغ من أعم الأحوال .

وقوله : « غير ناظرين » حال من ضمير « تدخلوا » ، و « إناه » أى : نضجه وبلوغه الحد الذى يؤكل معه . يقال : أنى الطعام يأنى أنيا وإنى — كقلى يقلى — إذا نضج وكان معداً للأكل .

والمعنى : يامن آمنتم بالله — تعالى — حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبى (صلى الله عليه وسلم) فى حال من الأحوال ، إلا فى حال الإذن لكم بدخولها ، من أجـــل حضور طعام تدعون إلى تناوله ، وليكن حضوركم فى الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا قبل إعداده بفترة طويلة ، منتظرين نضجه وتقديمه إليكم للأكل منه .

قالوا : وكان من عادة بعضهم فى الجاهلية أنهم يلجون البيوت بدون إستئذان ، فإذا وجدوا طعاماً يعد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا منه .

فالنهى فى الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، وبمن دخل بدعوة ولكنه مكث منتظرا للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار . أما إذا كان الدخول بدعوة ، أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا يتناوله النهى .

قال الآلوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين . خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى (صلى الله عليه وسلم) فيظلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، فهى مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى المستقبل . فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر » (١) .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٧٠

وقوله – سبحانه – « ولكن إذا دعيتم فادخلوا » استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن متضمن معنى الدعوة .

أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى الطعام فادخلوا لتناوله وقوله – تعالى – « فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث » بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة التى شرعها الإسلام فى تناول الطعام عند الغير .

أى : إذا دعيتم لحضور طعام فى بيت النبى (صلى الله عليه وسلم) فادخلوا ، فإذ ما انتهيتم من طعامكم عنده ، فتفرقوا ولا تمكثوا فى البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت .

فقوله « مستأنسين » مأخـــوذ من الانس بمعنى السرور والارتياح للشىء . تقول : أنست ، لحديث فلان ، إذا سررت له ، وفرحت به .

وأطلق – سبحانه – نفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث ، للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، ما دام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث . وهذا أدب عام لجميع المسلمين .

واسم الإشارة فى قوله : « إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن . والجملة بمثابة التعليل لما قبلها .

أى : إن ذاكم المذكور كان يؤذى النبى (صلى الله عليه وسلم) ويدخل الحزن على قلبه ، لأنه يتنافى مع الأدب الإسلامى الحكيم ، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) كان يستحى أن يصرح لكم بذلك . لسمو خلقه ، وكمال

أدبه، كما أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يستحي أن يقول لكم كلاماً تدركون منه أنه يريد انصرافكم .

وقوله — تعالى — : « والله لا يستحي من الحق » أي . والله - تعالى - لا يستحي من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه — سبحانه — أن يقول الحق ، ولا يسكت عن ذلك .

وإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد منعه حياؤه من أن يقول قولا تفهمون منه ضجره من بقائكم في بيته بعد تناول طعامكم عنده ... فإن الله — تعالى — وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق في هذه الأمور وفي غيرها ، حتى تتأدبوا بأدب دينه القويم . ثم ذكر — سبحانه — الآداب التي يجب عليهم أن يلتزموها مع نساء نبيهم (صلى الله عليه وسلم) فقال : « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . . . » .

أي : وإذا طلبتم — أيها المؤمنون — من أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) شيئاً سواء أكان هـذا الشيء حسياً كالطعام أو معنوياً كمعرفة بعض الأحكام الشرعية . . إذا سألتموهن شيئاً من ذلك ، فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن .

لأن سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن الوقوع في الهواجس الشيطانية التي قد تتولد عن مشاهدتكم لهن ، ومشاهدتهن لكم .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيما » .

أى : وما صح وما استقام لكم - أيها المؤمنون - أن تؤذوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأى لون من ألوان الأذى ، سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظاراً لنضج الطعام أم بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به (صلى الله عليه وسلم)

كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أى : من بعد وفاته .

« إن ذلكم ، أى : إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده « كان عند الله » - تعالى - ذنبا « عظيما » وإثما جسيما ، لا يقادر قدره .

ثم حذرهم - سبحانه - من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء ، من أمرهم ، فقال : « إن تبدوا شيئاً » بأن تظهروه على ألسنتكم أو تخفوه ، بأن تضمروه فى قلوبكم ، فإنه فى الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، « فإن الله » - تعالى - « كان بكل شىء عليما » بحيث لا يخفى عليه شىء ، فى الأرض ولا فى السماء .

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التى تسمى بآية الحجاب ، جملة من الأحكام والآداب منها :

١ - وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء . كما أن من الواجب الحضور إلى الطعام فى الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظارا لنضجه وتقديمه .

٢ - حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك فى الطعام أم فى غيره ، فقد أمر - سبحانه - المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبى

— صلى الله عليه وسلم — شيئا أن يسألوهن من وراء حجاب ، وعلل ذلك بأن سؤالهن بهذه الطريقة ، يؤدى إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ، والبعد عن الريبة وخواطر السوء . . .

وحكم نساء المؤمنين فى ذلك كحكم أمهات المؤمنين . لأن قوله ـ سبحانه « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » علة عامة تدل على تعميم الحكم . إذ جميع الرجال والنساء فى كل زمان ومكان فى حاجة إلى ما هو أطهر للقلوب ، وأعف للنفوس . . .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — لا حاجة بهن إلى أطهرية قلوبهن ، وقلوب الرجال من الريبة منهن . . .

فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن ، لأن عموم علته دليل على عموم الحكم فيه . . . »(١) .

٣ — كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا يجوز للرجل الأجنبى أن يصافح امرأة أجنبية منه . ولا يجوز له أن يمس شىء من بدنه شيئا من بدنها .

والله ـ تعالى ـ يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة . . » فيلزمنا أن لا نصافح النساء الأجنبيات اقتداء به صلى الله عليه وسلم ـ(٢) .

(١) راجع « أضواء البيان » حـ ٦ ص ٥٨٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٢) راجع تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٦٠٢ .

٤ — تكريم الله تعالى — لنبيه صلى الله عليه وسلم — ، ودفاعه عنه، وإلزام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه ولا يؤذيه ، و بعدم نكاح أزواجه من بعده أبدا . . .

* * *

ثم استثنت السورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة أن تظهر أمامهم بدون حجاب ، و بينت سمو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكدت التحذير من إيذائه ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبي صلى الله عليه وسلم — أن يرشد أزواجه و بناته ونساء المؤمنين إلى وجوب الاحتشام في ملابسهن . . . فقال تعالى — :

لَّا جُنَاحَ

عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى
ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟
فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ
وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ
أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

قال القرطبى : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم - : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية : « لا جناح عليهن فى آبائهن . . . »(١) .

فالآية الكريمة مسوقة لبيان من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٣١ .

أى : لا حرج ولا إثم على أمهات المؤمنين ولا على غيرهن من النساء ، فى ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو أبنائهن أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نسائهن اللاتى تربطهن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ماملكت أيمانهن من الذكور أو الإناث .

فهؤلاء يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن يظهرن أمامهم بدون ساتر ، وهذا لون من ألوان اليسر والسماحة فى شريعة الإسلام .

ولم يذكر سبحانه ـ العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين، وقد يسمى العم أبا ، كما فى قوله تعالى ـ حكاية عن يعقوب : (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون) وإسماعيل كان عما ليعقوب لا أباله .

قال الجمل : وقوله : (ولا نسائهن) أى : ولا جناح على زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى عدم الاحتجاب عن نسائهن، أى : عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة فى الوصف ، وهو الإسلام ، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبى الاحتجاب عنهن ، كما يجب على سائر المسلمات . أى : ماعدا ما يبدو عند المهنة ، أما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات »(١) .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ـ فى سورة النور : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبناء بعولتهن . . .) .

ثم عقب ـ سبحانه ـ هذا الترخيص والتيسير بقوله : (واتقين الله إن الله كان على كل شىء شهيدا) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤٥٤ .

والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحت لكن يامعشر النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب ، فامتثلن أمرى ، واتقين الله — تعالى — فى كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله — تعالى — مطلع على كل ما يصدر عنكن . وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم أثنى الله — تعالى — على نبيه ثناء كبيرا وأمر المؤمنين بأن يعظموه ويوقروه فقال : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فى حياته وموته ، وذكر منزلته منه ... والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ...

والضمير فى (يصلون) لله تعالى — ولملائكته . وهذا قول من الله شرف به ملائكته . . .

أو فى الكلام حذف . والتقدير : إن الله يصلى وملائكته يصلون»(١).

وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن الله — تعالى — أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى : بأنه يثنى عليه عند الملائكة ثم أمر الله أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه . ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا »(٢) .

والمعنى : إن الله — تعالى — يثنى على نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٣٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٧ .

ويرضى عنه ، وإن الملائكة تثنى عليه — صلى الله عليه وسلم — وتدعوله بالظفر بأعلى الدرجات وأسماها .

(يأيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى: عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات (وسلموا تسليما) أى : وقولوا . السلام عليك أيها النبى : والسلام : مصدر بمعنى السلامة . أى : السلامة من النقائص والآفات ملازمة لك .

والتعبير بالجملة الاسمية فى صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك .

وخص المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد النهى عن إيذاء النبى — صلى الله عليه وسلم — والإيذا له — صلى الله عليه وسلم — إنما يكون من البشر .

وقد ساق المفسرون — وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبى والآلوسى — أحاديث متعدده فى فضل الإكثار من الصلاة على النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وفى كيفية الصلاة عليه . . .

ومنها : مارواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة قال : سمعت النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول : من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ماصلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر) .

ومنها مارواه الشيخان وغيرهما عن كعب بن عجرة قال: لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله ، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قولوا : اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت

على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد »(١) .

والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمؤمنون الصادقون هم الذين يكثرون من ذلك .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : فإن قلت الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت: بل واجبة ، وقد أختلفوا فى حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنهم من قال تجب فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره .

ومنهم من أوجبها فى العمر مرة . . . والذى يقتضيه الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار فى ذلك .

ومنها : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على »(٢) .

ثم توعد ـ سبحانه ـ الذين يسيئون إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأى لون من ألوان الإساءة فقال : إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا) .

والمراد بأذى الله ورسوله . أرتكاب ما يبغضان ويكرهان من الكفر والفسوق والعصيان ، ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ماقاله الكافرون فى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر . .

وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إيذاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها إلى ص ٤٦٩ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٧ .

خاصة ، وذكر الله - تعالى - معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى الله - تعالى - ، كما جعلت طاعة الرسول ، طاعة لله .

قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشىء ، فإن من آذه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، فى الحديث الشريف : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه »(١) .

أى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - بارتكاب مالا يرضياه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان . . .

وقوله « لعنهم الله فى الدنيا والآخرة » أى : طرد الله - تعالى - هؤلاء الذين ارتكبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه فى الدنيا والآخرة .

« وأعد لهم » - سبحانه - فى الآخرة « عذابا مهينا » أى : عذابا يهينهم ويجعلهم محل الاحتقار والإزدراء من غيرهم .

وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » .

أى : والذين يرتكبون فى حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا مايوجب أذاهم . . .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٦٩ .

« فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » أى : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات .

وقال - سبحانه - هنا « بغير ما اكتسبوا » ولم يقل ذلك فى الآية السابقة عليها ، لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويؤذى بعضهم بعضا ، أما الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فلا يتصور منهما ذلك .

وجمع - سبحانه - فى ذمهم بين البهتان والاثم المبين ، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه فى حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذى لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لشدته وبعده عن الحقيقة .

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذى لا يخفى قبحه على أحد .

روى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لأصحابه . أى الربا أربى عند الله ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربى الربا عند الله ، استحلال عرض امرىء مسلم ، ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية(١) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر فى ملابسهن فقال - تعالى - : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، يدنين عليهن من جلابيبهن . . . . »

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٠ .

قال الآلوسى : روى عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر فإذا قيل لهم قالوا : حسبنا هن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الآماء فى الزى والتستر فلا يطمع فيهن . . . . (١) .

وقوله : « يدنين » من الإدناء بمعنى التقريب ، ولتضمنه معنى السدل والإرخاء عدى بعلى . وهو جواب للأمر ، كما فى قوله — تعالى — : وقل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة . . . . .

والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، تلبسه المرأة ، فوق ثيابها .

والمعنى : يأيها النبى قل لأزواجك اللائى فى عصمتك ، وقل لبناتك اللائى هن من نسلك ، وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ماخرجن لقضاء حاجتهن ، فعليهن أن يسدلن الجلابيب عليهن ، حتى يسترن أجسامهن ستراً تاماً ، من رءوسهن إلى أقدامهن ، زيادة فى التستر والاحتشام ، وبعداً عن مكان التهمة والريبة .

قالت أم سلمة — رضى الله عنها — : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها

وقوله : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » بيان للحكمة من الأمر بالتستر والإحتشام .

أى : ذلك التستر والاحتشام والإدناء عليهن من جلابيبهن يجعلهن أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من فى قلوبهم مرض .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٨٨

قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه ، وقصرها على الحرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمـل أمر الاماء ، ولم يبال بما ينالهن من الإيذاء عن ضعف إيمانهم ، مع أن في ذلك من الفتنة ما فيه ، فهلا كان التصون والتستر وما في جميع النساء ؟

والجواب ، أن الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن في الاسواق ، فإذا كلفن أن يتقنعن ويلبسن الجلباب السابغ كلما خرجن ، كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات جميعاً ، سواء الحرائر والإماء ، وتوعد المؤذين بالعذاب المهين . . . والشارع — أيضاً — لم يحظر على الإماء التستر والتقنع ولكنه لم يكلفهن بذلك دفعاً للحرج والعسر ، فللأمة أن تلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك . . . »(١) .

هذا ، ويرى الامام أبو حيان أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، مايشمل الحرائر والإماء وأن الأمر بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر بإسدال الجلابيب عليهن ، درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الإيمان .

فقد قال رحمه الله : والظاهر أن قوله : «ونساء المؤمنين» يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح . . . « ذلك أدنى أن يعرفن » لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ، ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها(٢) .

(١) تفسير آيات الأحـكام جـ ٤ ص ٥٣ للشيخ محمد على السايس — رحمه الله —

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان جـ ٧ ص ٢٥٠

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذى اتجه إليه أبو حيان — رحمه الله — أولى بالقبول من غيره ، لتمشيه مع شريعة الإسلام التى تدعو جميع النساء إلى التستر والعفاف .

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : « وكان الله غفورا رحيما » أى : كان الله — تعالى — وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة مما وقع فيه من أخطاء وسيئات .

• • •

ثم هدد — سبحانه — المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذا ما استمروا فى إيذائهم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وللمؤمنين والمؤمنات ، وبين — عز وجل — أن وقت قيام الساعة مرد علمه إليه وحده ، وأن الكافرين عند قيامها سيندمون ولكن لن ينفعهم الندم .

فقال — تعالى — :

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا
ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ
أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

والمنافقون : جمع منافق ، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر .

والذين فى قلوبهم مرض : هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو الثبات على الحق .

والمرجفون فى المدينة : هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين

ويلقون الأكاذيب الضارة بهم ويذيعونها بين الناس . وأصل الإرجاف : التحريك الشديد للشيء ، مأخوذ من الرجفة التي هي الزلزلة . ووصف به الأخبار الكاذبة ، لكونها في ذاتها متزلزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها الاضطراب في قلوب الناس .

وقد سار بعض المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف منها لطائفة معينة ، وسار آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة هي طائفة المنافقين ، وأن العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات .

قال القرطبي : قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة . . » أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد . . . والواو مقحمة كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة .

وقيل : كان منهم قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . . . » (١) .

وقد سار صاحب الكشاف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين ، فقال : « والذين في قلوبهم مرض ، قوم كان فيهم ضعف إيمان ، وقلة ثبات عليه .

« والمرجفون في المدينة ، ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٤٦

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم ، والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم وتنوءهم (١) .

وقوله : «لنغرينك بهم» جواب القسم . أى : لنسلطنك عليهم فنستأصلهم بالقتل والتشريد ، يقال : أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرضه على فعله .

وقوله : «ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا» معطوف على جواب القسم أى : لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا يرتحلون بعده بعيداً عنكم ، لكى تبتعدوا عن شرورهم .

وجاء العطف بثم فى قوله : «ثم لا يجاورونك» للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم ، وقوله : «ملعونين أينما ثقفوا» أى : مطرودين من رحمة الله — تعالى — ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون .

و «ملعونين» منصوب على الحال من فاعل «يجاورونك» و «ثقفوا» بمعنى وجدوا . تقول . ثقفت الرجل فى الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به .

وقوله : «أخذوا وقتلوا تقتيلا» بيان لما يحيق بهم من عقوبات عند الظفر بهم أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا تقتيلا شديداً ، وهذا حكم الله — تعالى — فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وإشاعتهم قالة السوء فى المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦١

يقلعوا عن فجورهم وفسقهم فقال : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل . . »
وقوله : « سنة » منصوب على أنه مصدر مؤكد ، أى : سن الله - تعالى - ذلك سنة ، فى الأمم الماضية من قبلكم — أيها المؤمنون — بأن جعل تأديب الذين يسعون فى الأرض بالفساد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من سننه التى لا تتخلف .

« ولن تجد » - أيها الرسول الكريم - « لسنة الله » الماضية فى خلقه « تبديلا » أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة ، والعدالة القويمة .

ثم بين — سبحانه — أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال : « يسألونك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا » .

والسائلون هنا قيل هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت والإساءة إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — .
أى : يسألك اليهود وأشباههم فى الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة على سبيل التعنت والإمتحان لك .

« قل » لهم — أيها الرسول الكريم — « إنما » علم وقت قيامها عند الله — تعالى — وحده ، دون أى أحد سواه .

« وما يدريك » أى : وما يعلمك « لعل الساعة تكون قريبا » أى : لعل قيامها وحصولها يتحقق فى وقت قريب ، ولكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب — سبحانه — .

ولقد كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويشير إلى إصبعيه السبابة والوسطى .

ثم بين - تعالى - ما أعده للكافرين من عقاب فقال « إن الله لعن الكافرين » بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته .

« وأعد لهم » فوق ذلك فى الآخرة « سعيرا » أى : نارا شديدة الاشتعال والاتقاد .

« خالدين فيها أبدا » أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا خروج لهم منها معه

« لا يجدون وليا ولا نصيرا » أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول فى هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها وسعيرها .

ثم بين - سبحانه - حسراتهم عندما يحل بهم العذاب فى الآخرة فقال: يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » .

و « يوم » ظرف لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم . أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب ، يوم تقلب وجوههم فى النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه .

وحينئذ يقولون على سبيل التحسر والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله-تعالى- فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « تقلب » بمعنى تتقلب ، ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات ، كما ترى البيضة تدور فى القدر إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها فى النار مقلوبة منكوسة .

وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة »(١) .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٦٢ .

وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، أى : وقال هؤلاء الكافرون - بعد هذا التحسر والتفجع - يا ربنا إنا أطعنا فى الدنيا « سادتنا وكبراءنا » أى : ملوكنا ورؤساءنا وزعماءنا ، فجعلونا فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق .

« ربنا آتهم ضعفين من العذاب » أى : يا ربنا أنزل بهؤلاء السادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم فى أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم .

« والعنهم لعنا كبيرا » أى وأطردهم من رحمتك ، وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم الذين كانوا سببا لنا فى هذا العذاب المهين الذى نزل بنا ،

وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين فى الآخرة هذا التصوير المؤثر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

• • •

وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من آداب ، وقصت ما قصت من أحداث . . . بعد كل ذلك وجهت فى أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله - تعالى - وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب سلوك الأشرار ، كما ذكرتهم بثقل الأمانة التى رضوا بحملها ، وبحسن عاقبة الصالحين وسوء عاقبة المكذبين . قال - تعالى - :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ
كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

والمراد بالذين آذوا موسى — عليه السلام — فى قوله — تعالى — : يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى . . . ، قومه الذين أرسله الله إليهم .

فقد حكى القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له : « ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . . . » وقولهم : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

وقولهم : « لن نصبر على طعام واحد . . . » واتخاذهم العجل إلهاً من دون الله في غيبة نبيهم موسى — عليه السلام — . . .

ومن إيذائهم له — عليه السلام — ما رواه الإمام والبخارى والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إن موسى كان رجلا حيياً ستيراً لا يرى من جلده شىء ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما آفة . وإن الله — تعالى — أراد أن يبرئه مما قالوا ، وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ بنى إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله — تعالى — ، وأبرأه الله — تعالى — مما يقولون . . . فذلك قوله — تعالى — « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى . . . » (١) .

والمعنى : يا من آمنتم بالله — تعالى — حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم — صلى الله عليه وسلم — ، واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذى سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى — عليه السلام — حيث آذوه بشتى أنواع الأذى .

« فبرأه الله مما قالوا » أى : فأظهر الله — تعالى — براءته من كل مانسبوه إليه من سوء .

« وكان عند الله وجيها » أى : وكان عند الله — تعالى — ذا جاه

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٧٤

عظيم ، ومكانة سامية ، ومنزلة عالية ، حيث نصره — سبحانه — عليهم واصطفاه لحمل رسالته . . .

يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر .

ثم أمرهم — سبحانه — بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببنى إسرائيل فى إيذائهم لنبيهم فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . . . . » .

والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالى من كل انحراف الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه يسدده ، إذا وجهه بإحكام إلى المرمى الذى يقصده فأصابه . ومنه قولهم : سهم قاصد . إذا أصاب الهدف .

أى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وراقبوه وخافوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، وفى كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولا كله الصدق والصواب .

فإنكم إن فعلتم ذلك « يصلح » الله — تعالى — « لكم أعمالكم » بأن يجعلها مقبولة عنده « ويغفر لكم ذنوبكم » التى فرطت منكم ، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم فى أقوالكم وأفعالكم .

« ومن يطع الله ورسوله » فى كل الأقوال والأعمال « فقد فاز » فى الدارين

« فوزا عظيما » لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته .

ثم بين — سبحانه — ضخامة التبعة التى حملها الإنسان فقال : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . . . . » .

وأرجح الأقوال وأجمعها فى المراد بالأمانة هنا : أنها التكاليف والفرائض الشرعية التى كلف الله — تعالى — بها عباده ، من إخلاص فى العبادة ، ومن أداء للطاعات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه .

وسمى — سبحانه — ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا — سبحانه — بها ، وأئتمننا عليها ، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها بدون إخلال بشىء منها .

والمراد بالإنسان : آدم — عليه السلام — ، أو جنس الإنسان .

والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهى مع ثقلها وضخامتها .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية إتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على حقيقته ، وأن — تعالى — قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة ، على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، لثقلها وضخامتها ، وأشفقن منها ، أى : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى بهن إلى عـــذاب الله وسخطه بسبب التقصير فى أداء ما كلفن بأدائه .

« وحملها الإنسان » أى : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه ، بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها .

« إنه كان ظلوما جهولا » أى : إنه كان مفرطا فى ظلمه لنفسه ومبالغاً فى الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأدا ما كلفهم الله — تعالى — بأدائه ، وإنما منهم من أداها على وجهها - وهم الأقلون - ومنهم من لم يؤدها ، وإنما عصى ما أمر به ربه ، وخان الأمانة التى التزم بأدائها .

فالضمير فى قوله « إنه » يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التى التزموا بحملها .

قال الآلوسى : « إنه كان ظلوما جهولا » أى : بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشىء ، وجوده فى بعض أفراده ، فضلا عن وجوده فى غالبها . . . » (١) .

وقال بعض العلماء : ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلى معروف فى اللغة التى نزل بها القرآن .

وقد جاء فعلا فى آية من كتاب الله ، وهى — تعالى — : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب الله . . . » لأن الضمير فى قوله : « ولا ينقص من عمره » راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلى ، كما هو ظاهر .

وهـــذه المسألة هى المعروفة عند علماء العربية بمسألة : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر (٢) .

وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله — تعالى — إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو — سبحانه — .

ومما يشهد لذلك قوله — تعالى — : « تسبح له السموات السبع والأرض

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٩٦

(٢) تفسير « أضواء البيان » ج ٦ ص ٦٠٦ للشيخ محمد أمين الشنقيطى

ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ، (١) .

قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن — أي على السموات والأرض والجبال تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن حملها ، والجمادات كلها خاضعة لله — تعالى — مطيعة لأمره ساجدة له .

قال بعض أهل العلم : ركب الله — تعالى — فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن ، (٢) .

ويرى بعضهم أن العرض في الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ، أو من قبيل المجاز .

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما بين - تعالى - في هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور .

ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة . .

وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أي : أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب .

أي : أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٨

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٤

وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل ، وهذا كقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . . . » .

وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى : أنا إذا قابلنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبر عن هذا بعرض الأمانة . كما نقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه . .

وقيل : « عرضنا » بمعنى عارضنـــا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هـذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . . . » (١) .

ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

ومما لا شك فيه أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تخلق فى السموات والأرض والجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

واللام فى قوله - سبحانه - : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات . . . » متعلقة بقوله : « وحملها الإنسان . . » .

أى : وحملها الإنسان ليعذب الله - تعالى - بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، أى : ويقبل الله

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢٤ ص ٢٥٤

- تعالى - توبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم وخطاياهم .

«وكان» الله - تعالى - وما زال «غفورا رحيما» أى : واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة (الأحزاب) نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعاً لعباده .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر
مساء الخميس : ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
٦ - ٦ - ١٩٨٥ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٥
١	يأيها النبي اتق الله ...	١٣
٤	ما جعل الله لرجل من قلبين ...	١٥
٦	النبي أولى بالمؤمنين ...	٢٠
٧	وإذا أخذنا من النبيين ...	٢٥
٩	يأيها الذين آمنوا اذكروا ...	٢٨
١٦	قل لن ينفعكم الفرار ...	٣٦
٢١	لقد كان لكم في رسول الله ...	٤٣
٢٨	يأيها النبي قل لأزواجك ...	٥٣
٣٠	يا نساء النبي من يأت منكن ...	٥٧
٣٥	إن المسلمين والمسلمات ...	٦٧
٣٦	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ...	٦٩
٤١	يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ...	٨٠
٤٥	يأيها النبي إنا أرسلناك ...	٨٤
٤٩	يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم ...	٨٧
٥٠	يأيها النبي إنا أحللنا لك	٩٠
٥٣	يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا ...	١٠٣
٥٥	لا جناح عليهن في آبائهن...	١٠٨
٦٠	لئن لم ينته المنافقون ...	١١٧
٦٩	يأيها الذين آمنوا لا تكونوا...	١٢٣

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة سبأ

الدكتور
محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

"رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ — سورة « سبأ » هى السورة الرابعة والثلاثون فى ترتيب المصحف، أما فى ترتيب النزول فهى السورة السابعة والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة « لقمان » .

٢ — وسورة « سبأ » من السور المكية الخالصة ، وقيل هى مكية إلا الآية السادسة منها وهى قوله — تعالى — : « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق . . . . » .

٣ — وعدد آياتها خمس وخمسون آية فى المصحف الشامى ، وأربع وخمسون آية فى غيره . وسميت بهذا الإسم ، لاشتمالها على قصة أهل سبأ ، وما أصابهم من نقم بسبب عدم شكرهم لنعم الله — تعالى — عليهم .

٤ — وتبدأ سورة « سبأ » بالثناء على الله — تعالى — : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » .

ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال الكافرين فى تكذيبهم ليوم القيامة ، كما تحكى — أيضاً — بعض أقوالهم الباطلة التى قالوها فى شأن النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم ترد عليهم بما يخرس ألسنتهم .

٥ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة داود وسليمان - عليهما السلام -، فتحكى ما آتاهم الله - تعالى - إياه من خير وقوة وكيف أنهما قابلا نعم الله - تعالى - بالشكر والطاعة، فزادهما - سبحانه - من فضله وعطائه: «إعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور».

وكعادة القرآن الكريم فى جمعه بين الترغيب والترهيب، وبين بيان حسن عاقبة الشاكرين، وسوء عاقبة الجاحدين... جاءت فى أعقاب قصة داود وسليمان - عليهما السلام - قصة قبيلة سبأ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله الوفيرة بالجحود والإعراض، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم، كما قال - تعالى -: «ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازى إلا الكفور....».

٦ - ثم ساقت السورة بعد ذلك بأسلوب تلقينى ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته، وعلى وجوب إخلاص العبادة له.

نرى ذلك فى قوله - تعالى -: قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض...

وفى قوله - تعالى -: «قل من يرزقكم من السموات والأرض...»

وفى قوله - عز وجل -: «قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء، كلا بل هو الله العزيز الحكيم».

٧ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا...»

وعن أحوال الكافرين السيئة عندما يقفون أمام ربهم للحساب، وكيف أن كل فريق منهم يلقى التبعة على غيره «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا

لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين : . .

٨ ـ ثم ترد السورة الكريمة على أولئك المترفين ، الذين زعموا أن أموالهم وأولادهم ستنفعهم يوم القيامة . فتقرر أن ما ينفع يوم القيامة إنما هو الإيمان والعمل الصالح . وأن الله ـ تعالى ـ هو صاحب الاعطاء والمنع والاغناء والافقار .

قال ـ تعالى ـ : « وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . إلا من آمن وعمل صالحا، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون » .

٩ ـ وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من شبهات المشركين حول دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وردت عليهم بما يزيد المؤمنين ثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم ، أتبعت ذلك بدعوة هؤلاء الكافرين إلى التفكير والتدبر على انفراد ، فى شأن دعوة هذا الرسول الكريم الذى يدعوهم الحق لعل هذا التفكر يهديهم إلى الرشد .

قال ـ تعالى ـ : « قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد . . . . . » .

ثم ختمت السورة الكريمة بتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى كفرهم وعنادهم ، وأنهم سيندمون ـ إذا ما استمروا على كفرهم ـ ولن ينفعهم الندم .

قال ـ تعالى ـ : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل . إنهم كانوا فى شك مريب » .

١٠ — وهكذا ترى سورة سبأ قد ساقت أنواعا من الأدلة على وحدانية الله — تعالى — ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — صادق فيما يبلغه عن ربه . . . . كما أنها حكت شبهات للمشركين ، وردت عليهم بما يبطلها . والحمد لله حمدا كثيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى
الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة — مدينة نصر
مساء الخميس ١٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ
٦/٦/١٩٨٥ م

قال الله تعالى : التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ
فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ
الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣)
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥)

افتتحت سورة « سبأ » بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .

و « أل » فى الحمد للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله — تعالى — .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة عليه وحده — سبحانه — ، لأن كل

ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، هو في الحقيقة حمد لله — تعالى — ، لأنه — سبحانه — هو الذى وفقهم لذلك، وأعانهم عليه .

وقد اختار — سبحانه — افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح يكون للعاقل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح اللؤلؤة لجمالها ، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر عنه من إحسان .

والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر يكون من أجل نعمة وصلت إليك أما الحمد فيكون من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك (١) .

وفى القرآن الكريم خمس سور اشتركت فى الافتتاح بقوله - تعالى : « الحمد لله . وهى سورة الفاتحة ، والأنعام والكهف ، وسبأ ، وفاطر » .

ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص فى بيان أسباب أن الحمد لله — تعالى — وحده .

وقد أحسن القرطبى — رحمه الله — عند ما قال : فإن قيل : قد افتتح غيرها أى : سورة الأنعام — بالحمد لله ، فكان الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره ؟ فالجواب أن لكل واحدة منه معنى فى موضعه ، لا يؤدى عن غيره، من أجل عقده بالنعم المختلفة ، و — أيضاً — فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون » (٢) .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٣٨

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ٦ صـ ٣٨٤ . وراجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٣٩

والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، بحيث لا يخرج شىء فيهما من إرادته ومشيئته .

وقوله : « وله الحمد فى الآخرة » تنبيه إلى أن حمده - عز وجل - ليس مقصورا على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة .

فالمؤمنون يحمدونه فى الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمدونه فى الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض . ويقولون : « الحمد لله الذى صدقنا وعده . وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » (١) .

قال صاحب الكشاف : ولما قال - سبحانه - : الحمد لله، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا، تقول أحمد أخاك الذى كساك وحملك : تريد : أحمده على كسوته وحملانه .

ولما قال : « وله الحمد فى الآخرة » علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب . . . » (٢) .

وقال الآلوسى : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس »(٣) .

وقال الجمل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستقبح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك ؟

فالجواب : أن هذا المدح دليل على أن حاله - تعالى - بخلاف حال

---

(١) سورة الزمر . الآية ٧٤ (٢) تفسير الكشاف جـ ٣ صـ ٥٦١
(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ صـ ١٠٣

الخلق ، وأنه يحسن منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدل على أنه — تعالى — مقدس أن تقاس أفعاله ، على أفعال العباد . . . »(٢) .

ثم ختم — سبحانه — الآية بقوله : « وهو الحكيم الخبير » أى : وهو — تعالى — الذى أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العليم بظواهر عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء من أحوالهم .

ثم فصل — سبحانه — بعض مظاهر علمه فقال : « يعلم ما يلج ما فى الأرض » والولوج الدخول . يقال : ولج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ، إذا دخله .

أى : أنه سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر دفنت فى طياتها ، ومن بذور ومعادن فى جوفها ...

ويعلم - أيضا — « ما يخرج منها » من نبات وحبوب وكنوز وغير ذلك من أنواع الخيرات .

ويعلم كذلك « ما ينزل من السماء » من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده — تعالى — لأهل الأرض .

« وما يعرج فيها » أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كما قال — تعالى — : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

وعدى العروج بفى لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بإلى قال — تعالى — « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقوله : « يعرج » من العروج ، وهو الذهاب فى صعود ، والسماء : جهة العلو مطلقا .

« وهو الرحيم الغفور » أى : وهو — سبحانه — صاحب الرحمة الواسعة والمغفرة العظيمة ، لمن يشاء من عباده .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص ٤٥٩

وهذه الآية الكريمة - مع وجازة ألفاظها - تصور تصويرا بديعا معجزا، مظاهر علم الله - تعالى - ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ، ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، لما استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود من خلق الله - تعالى - فى أرضه أو سمائه .

ولكن هذه الحشود العجيبة فى حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها وأجناسها وصورها ، وأحوالها .. قد أحصاها علم الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء

ثم حكى - سبحانه - ما قاله الكافرون فى شأن يوم القيامة فقال - تعالى - : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ... » .

أى : وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال ، وإنما نحن نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر ، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى .

وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم : « لا تأتينا الساعة » مبالغة فى نفيها نفيا كليا ، فكأنهم يقولون : لا تأتينا الساعة فى حال من الأحوال ، لأننا ننكر وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال : « قل بلى وربى لتأتينكم » .

وبلى حرف جواب لرد النفى ، فتفيد إثبات المنفى قبلها ، ثم أكد - سبحانه - ذلك بجملة القسم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة ليس الأمر كما زعمتم ، بل هى ستأتيكم بغتة ، وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم

فالجملة الكريمة قد اشتملت على جملة من المؤكدات التى تثبت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومن ذلك التعبير بلفظ « بلى » ، وبالجملة القسمية . .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن مما أمر الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد : فإحداهن فى سورة يونس ، وهى قوله — تعالى — : « ويستنبئونك احق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين » .

والثانية هذه الآية التى معنا . والثالثة فى سورة التغابن وهى قوله - تعالى - : «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن .»(١)

وقوله — تعالى — : « عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » تقوية لتأكيد إتيان الساعة .

قالوا : لأن تأكيد القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه ، وقوة إثباته ، وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر(٢)

وقوله « يعزب » بمعنى يغيب ويخفى ، وفعله من باب «قتل وضرب» . يقال : عزب الشىء يعزب - بضم الزاى وكسرها - إذا غاب وبعد .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : كذبتم فى إنكاركم وحق الله - تعالى - لتأتينكم ، والذى أخبرنى بذلك هو الله - تعالى - « عالم الغيب » أى : عالم ما غاب وخفى عن حسكم ، وهو - سبحانه - لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك المثقال . ولا أكبر منه . إلا وهو مثبت وكائن فى علمه — تعالى — الذى لا يغيب عنه شىء أو فى اللوح المحفوظ الذى فيه تسجل أحوال الخلائق وأقوالهم وأفعالهم .

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٤٨٢

(٢) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٣ ص ٤٥٩

وقوله — سبحانه — : « عالم الغيب » قرأه بعضهم بكسر الميم على أنه نعت لقوله : « ربى » .

أى : قل بلى وربى عالم الغيب لتأتينكم الساعة .

وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ ، وخبره جملة : «لا يعزب عنه» أو هو خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو عالم الغيب .

وقوله : « لا يعزب عنه مثقال ذرة » تمثيل لقلة الشىء ، ودقته . والمراد أنه لا يغيب عن علمه شىء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعال من الثقل ويطلق على الشىء البالغ النهاية فى الصغر والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ .

وفى قوله — سبحانه — : « ولا أصغر من ذلك » إعجاز علمى بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب . أن الذرة أصغر الأجسام . فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات .

قال الجمل : وقوله : « ولا أصغر من ذلك » العامة على رفع أصغر وأكبر . وفيه وجهان :

أحدهما الابتداء والخبر إلا فى كتاب . والثانى العطف على « مثقال » ، وعلى هذا فيكون قوله : « إلا فى كتاب » تأكيد للنفى فى « لا يعزب » كأنه قال : لكنه فى كتاب مبين ...

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر . فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لابد وأن يعلم الأكبر ؟ فالجواب : لما كان الله — تعالى — أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب . فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ،

فقال : الإثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضاً »(١) .

واللام فى قوله ـ تعالى ـ « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . » متعلقة بقوله « لتأتينكم » وهى للتعليل ولبيان الحكمة فى إتيانها .

أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة فى ذلك ليجزى ـ سبحانه ـ الذى آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذى يستحقونه .

« أولئك الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح « لهم مغفرة » عظيمة من ربهم لذنوبهم « ولهم » كذلك « رزق كريم » تنشرح له صدورهم وتقر به عيونهم .

« والذين سعوا فى آياتنا معاجزين » أى : والذين سعوا فى إبطال آياتنا وفى تكذيب رسلنا « معاجزين » أى مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا . يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه .

« أولئك » الذين يفعلون ذلك « لهم عذاب من رجز أليم » أى : لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة بعد ثنائها على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله ، وبعد إثباتها لعلمه الذى لا يعزب عنه شىء ، وبعد حكايتها لأقوال المشركين وردها عليهم . . .

بعد كل ذلك تصرح بأن الحكمة من إتيان الساعة ، مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب ، ومجازاة الذين كفروا وسعوا فى آيات الله بالقدح فيها وصد الناس عنها ، بما يستحقون من عقاب .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ صـ ٤٦٠ .

ثم بين — سبحانه — موقف أهل العلم النافع مما جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — من عند ربه، وموقف الكافرين من ذلك، ورد — سبحانه — على هؤلاء الكافرين بما يثبت ضلالهم وجهالتهم، فقال — تعالى — :

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ
بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ
يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ
نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

والمراد بالرؤية فى قوله - تعالى - : « ويرى الذين أوتوا العلم . . . » المعرفة والعلم واليقين، والمراد بالذين أوتوا العلم : المؤمنون الصادقون الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى كل ما جاءهم به من عند ربه، سواء أكانوا من العرب أم من غيرهم، كمؤمنى أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

والجملة الكريمة مستأنفة لمدح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق، أو معطوفة على يجزى فى قوله - تعالى - قبل ذلك : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . ».

والمراد بالذى أنزل إليك من ربك القرآن الكريم .

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن الذين أوتوا العلم وهم أتباعك الصادقون يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذى لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذى يهدى من اتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله — تعالى — « العزيز » الذى يقهر ولا يقهر « الحميد » أى المحمود فى جميع شئونه .

والمفعول الأول ليرى قوله : « الذى أنزل . . . » والمفعول الثانى « الحق » و « هو » ضمير فصل متوسط بين المفعولين و « يهدى » معطوف على المفعول الثانى من باب عطف الفعل على الإسم لتأويله به . أى : يرونه حقا وهاديا .

وعبر - سبحانه - عن إيمان أهل العلم بما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « ويرى » ، للاشعار بأنهم قد آمنوا هذا الإيمان الجازم عن إدراك ومشاهدة ويقين ، وأنهم قد صاروا لا يشكون فى كون هذا المنزل عليه من ربه ، هو الحق الهادى إلى الصراط المستقيم .

وفى وصفهم بقوله : « أوتو العلم » ثناء عظيم عليهم ، لأنهم انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه حق ، ويهدى إلى السعادة الدينية والدنيوية والأخروية .

وهكذا العلماء العاملون بمقتضى علمهم النافع . يكونون أنصارا الحق والهدى فى كل زمان ومكان .

ثم حكى — سبحانه — ما قاله أولئك الكافرون فيما بينهم ، على سبيل الإستهزاء بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق . . . »

وتمزق الشيء : تفريقه وجعله قطعا قطعا . يقال : ثوب ممزق ومزيق إذا كان مقطعا مخرقا . والمراد بالرجل : الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

أي : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن ندلكم وترشدكم إلى رجل ، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم أنكم إذا متم ، وفرقت أجسامكم في الأرض كل تفريق ، وصرتم رفاتا وعظاما ، وأصبحتم طعاما في بطون الطيور والوحوش .

« إنكم لفي خلق جديد » أي : إنكم بعد هذا التمزيق والتفريق ، تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب على أعمالكم التي عملتموها في حياتكم .

وقالوا : « هل ندلكم على رجل » وهو (صلى الله عليه وسلم) أشهر من نار على علم بينهم ، لتجاهل أمره ، والاستخفاف بشأنه ، والاستهزاء بدعوته .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : « فإن قلت : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشهورا علما في قريش ، وكان أنباؤه بالبعث شائعا بينهم . فما معنى قولهم : « هل ندلكم على رجل ينبئكم » ، فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ؟

قلت : كانوا يقصدون بذلك الطنز - أي : الاستخفاف - والسخرية - فأخرجوه مخرج التحلي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي متجاهلين به وبأمره » (١) .

وقال الآلوسي - رحمه الله - : وقوله : «ينبئكم» أي يحدثكم بأمر مستغرب عجيب ... وإذا في قوله : « إذا مزقتم . . . » شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة مابعده عليه . أي : تبعثون أو تحشرون ، وهو العامل في إذا على قوله

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٠

الجمهور . والجملة الشرطية بتمامها معمولة لقوله : «ينبئكم» لأنه فى معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون . ثم أكد ذلك بقوله ــ تعالى ــ : «إنكم لفى خلق جديد . . . . » (١) .

وقوله ــ سبحانه ــ بعد ذلك : «أفترى على الله كذبا أم به جنة . . » حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التى قالوها بشأن ما جاءهم به النبى (صلى الله عليه وسلم) .

والاستفهام لتعجبهم مما قاله (صلى الله عليه وسلم) ، لأن قوله لهم : إنكم ستبعثون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم لجهلهم وانطماس عقولهم يستنكرون ذلك ، ويرجعون قوله (صلى الله عليه وسلم) إلى أمرين : إما افتراء الكذب واختلاقه على الله ــ تعالى ــ ، وإما إصابته بالجنون الذى جعله يقول قولا لا يدرى معناه .

وقد رد الله ــ تعالى ــ بما ينفى عن رسوله (صلى الله عليه وسلم) ما اتهموه به ، وبما يثبت جهلهم وغباءهم فقال : «بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد» .

أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى أخبرهم بأن هناك بعثاً وحساباً ، به جنة أو افترى على الله كذبا ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، غارقون فى العذاب الذى لا نهاية له ، وفى الضلال البعيد من الحق غاية البعد .

ثم هددهم ــ سبحانه ــ بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى ضلالهم وجهالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : «أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض . . . » .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٠٩

والاستفهام للتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن التفكر والتدبر ، فالعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرته — عز وجل — المحيطة بهم من كل جانب والمنتشرة فى آفاق السموات وفى جوانب الأرض ؟

إن تأملهم فى مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، ومن شأنه أن يهديهم إلى الحق الذى جاءهم به رسولنا (صلى الله عليه وسلم) ، ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا « إن نشأ نخسف بهم الأرض ، كما فعلنا بقارون . « أو » إن نشأ « نسقط عليهم كسفا من السماء» والكسف جمع كسفة بمعنى قطعة أى : لا يعجزنا أن نخسف بهم الأرض . كما لا يعجزنا — أيضا — أن ننزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فتهلكهم ، كما أنزلناها على أصحاب الأيكة فأهلكتهم بسبب تكذيبهم وجحودهم .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم « لآية بينة وعبرة ظاهرة ، لكل عبد « منيب » أى : راجع إلى الله — تعالى — بالتوبة الصادقة ، وبالطاعة الخالصة لما جاءه به نبينا (صلى الله عليه وسلم)

* * *

ثم ساق — سبحانه — نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله — تعالى — الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف المعترف بنعم الله الشاكر لفضله .

وثانيهما : أعطاه الله — تعالى — النعم فوقف منها موقف الجاحد البطر الكنود ..

أما النموذج الأول فنراه فى شخص النبيين الكريمين داود وسليمان — عليهما السلام — فقد قال — سبحانه — فى شأنهما :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ
أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ
فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ
ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ
مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ
مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ
وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن
لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وقوله — سبحانه — : « ولقد آتينا داود منا فضلا » بيان لما من الله — تعالى — به على عبده داود — عليه السلام — من خير وبركة .

وهذا الفضل يشمل النبوة ، وإعطائه الزبور والملك ، وغير ذلك من النعم العظيمة التى وهبها — سبحانه — لنبيه داود .

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا بسبب إنابته إلينا ، وطاعته لنا .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : « ياجبال أوبي معه » والتأويب الترديد والترجيع . يقال : أوب فلان تأويبا إذا رجع مع غيره ما يقوله .

والجملة مقول لقول محذوف . أى : وقلنا ياجبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - : « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » .

وقوله : « والطير » بالنصب عطفا على قوله « فضلا » أى : وسخرنا له الطير لتسبح معه بحمدنا ، أو معطوف على محل «ياجبال» أى : ودعونا الجبال والطير إلى التسبيح معه .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه السلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به، تسبح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات، والغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله (ﷺ) سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود » (١) .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : وآتينا داود منا فضلا ، تأويب الجبال معه والطير ؟

قلت : كم بينهما من الفرق ؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال منزلة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٥

منزلة العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته . . . »(١) .

وقوله — تعالى — : « وألنا له الحديد » بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم الله بها — سبحانه — عليه .

أي : وصيرنا الحديد لينا في يده ، بحيث يصبح - مع صلابته وقوته - كالعجين في يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله في نار ، أو أن يطرقه بمطرقة ،

فالجملة الكريمة معطوفة على قوله « آتينا » وهي من جملة الفضل الذي منحه — سبحانه — لنبيه داود — عليه السلام .

و « أن » في قوله : « أن اعمل سابغات » مصدرية على حذف حرف الجر . وسابغات صفة لموصوف محذوف .

أي : ألنا له الحديد ، لكي يعمل منه دروعا سابغات . والدرع السابغة هي الدرع الواسعة التامة . يقال : سبغ الشيء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا . ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال-تعالى- : «ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . . . » (٢) .

وقوله : «وقدر في السرد» والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير في عمل الشيء . والسرد : نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها .

أي : آتينا داود كل هذا الفضل الذي من جملته إلانة الحديد في يده ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧١

(٢) سورة لقمان : الآية ٢٠

وقلنا له ياداود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صوره ، وأقوى هيئة . .

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها فى الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله - تعالى - داود - عليه السلام - أن يعملها بطريقة لا تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة أحكاما تاما بحيث لا تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف . وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله تعالى لعبده داود - عليه السلام -

ثم أمر - سبحانه - داود وأهله بالعمل الصالح فقال : « واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير » .

أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ماتعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم . بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن الامتنان . وفى الصحيح أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (١) .

هذا ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود من فضل ، أما نبيه سليمان ابن داود ، فقد أعطاه - سبحانه - أفضالا أخرى ، عبر عنها فى قوله - تعالى - : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر . . . »

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال ، والرواح : من الزوال إلى الغروب

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٦٧

والمعنى : وسخر لنبينا سليمان بن داود — عليهما السلام — الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة الواحدة مسيرة شهر . أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة مايقطعه الناس فى شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة وهى فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله - تعالى - إياها

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : «ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . . » (١) .

وقوله — سبحانه — : «. فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب» (٢) .

ثم بين — تعالى — نعمة ثانية من النعم التى أنعم بها على سليمان فقال : «وأسلنا له عين القطر» .

والقطر : هو النحاس المذاب . مأخوذ من قطر الشىء يقطر قطرا قطرانا ، إذا سال .

أى : كما ألنا لداود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا

ثم بين — سبحانه — نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان — عليه السلام — فقال : «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه . .» .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه ما يريده منهم ، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا .

«ومن يزغ منهم عن أمرنا» أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١

(٢) سورة «ص» الآية ٣٦

من طاعة سليمان ، نذقه من عذاب السعير ، أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والآخرة .

ثم بين — سبحانه — بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها لسليمان — عليه السلام — فقال : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات .... » .

والمحاريب : جمع محراب . وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .

قال القرطبى ماملخصه : والتماثيل جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست بحيوان .

وذكر أنها صورة الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد (صلى الله عليه وسلم) » (١) .

والجفان : جمع جفنة ، وهى الآنية الكبيرة ، والجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الكبير الذى يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .

والقدور : جمع قدر ، وهى الآنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٧٢

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لا تتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسليمان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تتحرك لضخامتها وعظمها .

وقوله - سبحانه - : « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » مقول لقول محذوف .

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل داود عملا صالحا ، شكراً لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هو الذى يشكرنى شكراً خالصاً على نعمى وفضلى وإحسانى .

وقوله «شكراً» يجوز أن يكون مفعولا لأجله . أى : اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدراً واقعاً موقع الحال . أى : اعملوا شاكرين .

و « قليل » خبر مقدم ، و « من عبادى » صفة له ، و « الشكور » مبتدأ مؤخر ، وهكذا يختتم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله - تعالى - وشكره .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه - سبحانه - فيما خلقت له .

والإنسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه :

ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد سليمان ، فقال : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته . . » .

والمراد بدابة الأرض : قيل هى الأرضة التى تأكل الخشب وتتغذى به

يقال : أرضت الدابة الخشب أرضا - من باب ضرب - ، إذا أكلته فإضافه الدابة إلى الأرض - بمعنى الأكل والقطع - من إضافة الشىء إلى فعله .

و « منسأته » أى : عصاه التى كان مستنداً عليها . وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها . من نسأ البعير - كمنع - إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان - عليه السلام - بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ومادلهم، أى : الجن الذين كانوا فى خدمته « على موته » بعد أن مات وظل واقفاً متكئاً على عصاه «إلا دابة الأرض تأكل من منسأته » أى : أنهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرض - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئاً من عصاه التى كان متكئاً عليها ، فسقط واقعاً بعد أن كان واقفاً .

« فلما خر » أى : فلما سقط سليمان على الأرض « تبينت الجن » أى : ظهر لهم ظهورا جليا « أن لو كانوا يعلمون الغيب » كما يزعم بعضهم .

«مالبثوا فى العذاب المبين» أى: ما بقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ، حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئاً من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته عن الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة فإنه مكث متوكئاً على عصاه ، - وهى منسأته - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، - وهى الأرضة - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس - أيضاً - أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك »(١) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٤٨٩

هذا هو النموذج الأول الذى ساقه الله - تعالى - للشاكرين ، متمثلا فى موقف داود وسليمان - عليهما السلام - مما أعطاهما - سبحانه - من نعم جزيلة.

أما النموذج الثانى - الذى جاء فى أعقاب سابقه - فقد ساقه - سبحانه - لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلا فى قصة قبيلة سبأ ، وكيف أنهم قابلوا نعم الله بالبطر . فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم ، وفى شأنهم يقول - عز وجل -:

لَقَدْ كَانَ

لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ
إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى
ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا
بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ
لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى
شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

و « سبأ » فى الأصل إسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن . . .

والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة بإسمه ، فيصرف على الأول ، ويترك صرفه على الثانى .

وكانوا يسكنون بمارب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء ، وكانت أرضهم خصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - بل هو رجل ، كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مذحج ، وكنده ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وسكن الشام منهم أربعة وهم : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان . . .

وإنما سمى « سبأ » لأنه أول من سبأ فى العرب - أى « جمع السبايا » - ، وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال - ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم - فى زمانه المتقدم . . .(١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٩١ .

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها « آية » بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدره الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضح - سبحانه - هذه الآية فقال : « جنتان عن يمين وشمال » أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة من يمين بلدهم ، وطائفة أخرى شماله ،

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل فيمتلىء من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .

ولفظ « جنتان » مرفوع على البدل من « آية » ، أو على أنه مبتدأ ، وخبره قوله : « عن يمين وشمال » .

وقوله - تعالى - : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له . . . » مقول لقول محذوف .

أى : وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له - سبحانه - هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .

وقوله : « بلدة طيبة ورب غفور » كلام مستأنف مسوق لبيان موجبات الشكر .

أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من

خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، و يعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله و إحسانه .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ، وأثل وشىء من سدر قليل » .

والعرم : اسم للوادى الذى كان يأتى منه السيل . وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر . . .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم ، فتفرقوا عنها ، ومزقوا شر ممزق وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ . وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ما حدث لقبيلة سبأ ، فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيله غسان . . .

وقوله : « ذواتى أكل خمط » الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « فآتت أكلها ضعفين » أى : ثمرها . والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لا يمكن أكله .

و (الأثل) هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء . أو هو نوع من

الشجر كثير الشوك و (السدر) هو ما يعرف بالنبق ، أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا . . فكانت نتيجة ذلك، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذى اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق . . وبدلناهم بالجنات اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم ما لذ وطاب ، وعظم نفعه . .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم . .

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله ـ تعالى ـ : (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا .

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة . وهو المفعول الثانى لجزيناهم مقدم عليه . أى : جزيناهم ذلك التبديل لا غيره . والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : (وهل نجازى إلا الكفور) بمعنى : وهل يعاقب ـ

وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد الخاص وهو العقاب . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم، وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى-: «وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » .

أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا - بين أهل سبأ ، وبين القرى التى باركنا فيها، كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، « قرى ظاهرة »أى: قرى متقاربة متواصلة بحيث يرى من فى إحداها غيرها . .

« وقدرنا فيها السير » أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : « سيروا فيها ليالى وأياما آمنين »مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات ، والتى توصلكم إلى القرى المباركة . . سيروا فيها ليالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم بالنهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات ، وفى كل الأحوال.

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله - تعالى - بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٧٦

والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهي نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحق والبطر ، أنهم دعوا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا . . . »

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها وهى نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله . . . إلا أنهم - لشؤمهم وضيق تفكيرهم وبطرهم وشقائهم - تضرعوا إلينا وقالوا: ياربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة منهم - كما يقول صاحب الكشاف - : بطروا النعمة ، وبشموا - أى : سئموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى »(١)

وفى هذه الجملة الكريمة قراءات متعددة ذكرها القرطبى فقال ما ملخصه: « وقراءة العامة « ربنا » - بالنصب - على أنه نداء مضاف . . . « باعد » - بزنة فاعل - سألوا المباعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ربنا » كذلك على الدعاء « بعد » - بتشديد العين - من التبعيد . .

وقرأ يعقوب وغيره « ربنا » - بالرفع - « باعد » - بفتح العين والدال - على الخبر . أى : لقد باعد ربنا بين أسفارنا . . »(٢) .

وقوله : « وظلموا أنفسهم » أى: قالوا ذلك القول السىء ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٧٧

(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٩٠

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » بيان لما آل إليه أمرهم.

والأحاديث : جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهى والتعجب أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر ، فكانت نتيجة ذلك ، أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل، فيقولون : تفرقوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل ممزق فى البلاد المتعددة ،فنهم من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق . . . بعد أن كانوا أمة متحدة ، يظلها الأمان والاطمئنان ، والغنى والجاه . . .

« إن فى ذلك » الذى فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم « لآيات » واضحات بينات « لكل صبار » على طاعة الله — تعالى — « شكور » له — سبحانه — على نعمه .

وخص — سبحانه — الصبار والشكور بالذكر ، لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين » .

ولفظ « صدق » قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد ، وقوله : « عليهم » متعلق بصدق .

وقوله « ظنه » مفعول به على قراءة التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع فى « عليهم » وفى « فاتبعوه » يعود إلى قوم سبأ .

والمعنى على القراءة بالتشديد : والقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم،وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان ، بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان، إلا فريقا من المؤمنين ، لم يستطع إبليس إغواءهم ، لأنهم أخلصوا

عبادتهم لخالقهم — عز وجل — ، واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

والمعنى على القراءة بالتخفيف: ولقد صدق إبليس فى ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى أطاعوه ، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه .

قال القرطبى ماملخصه : وقوله : « إلا فريقا من المؤمنين » نصب على الاستثناء ، وفيه قولان : أحدهما : أنه يراد به بعض المؤمنين - فتكون من للتبعيض - ، لأن كثيرا من المؤمنين يذنبون وينقادون لإبليس فى بعض المعاصى . أى : ماسلم من المؤمنين أيضاً إلا فريق ، وهو المقصود بقوله — تعالى — : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . . . » .

والثانى : أن المراد بهم جميع المؤمنين ، فعن ابن عباس أنه قال : هم المؤمنون كلهم .

وعلى هذا تكون « من » للبيان لا للتبعيض . . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم، لم يكن عن قسر وإكراه ، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . . . » .

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه. والمراد بالعلم فى قوله — تعالى - « إلا لنعلم » إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره .

أى . وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لا يملكون دفعه، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها ودفعها متى صمموا على ذلك بنية

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٢٩٧ .

ونحن ما أعطنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم ، إلا لنظهر فى عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وحساب ، ولنميزه عمن هو منها فى شك وريب وإنكار . . .

قال الشوكانى - رحمه الله - : والاستثناء فى قوله « إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك » منقطع أى : لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم .

وقيل : هو متصل مفرغ من أعم العلل . أى : ما كان له عليهم من تسلط بحال من الأحوال ، ولا لعلة من العلل ، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا يؤمن ، لأنه - سبحانه - قد علم ذلك علما أزليا . وقال الفراء : إلا لنعلم ذلك عندكم والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار »(١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وربك على كل شىء حفيظ » أى : وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شىء رقيب وحفيظ ، بحيث لا يخرج شىء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته .

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره ، وإخلاص العبادة له ، وحسن الصلة به - سبحانه - ، كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه - تعالى - ، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام - .

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات كل ذلك يؤدى إلى زوال النعم ، كما حدث لقبيلة سبأ .

وصدق الله إذ يقول : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٢٢ .

ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

• • •

ثم نجد السورة الكريمة بعد ذلك ، تلقن النبي - صلى الله عليه وسلم - الحجج التي تؤيد ما هو عليه من حق وصدق ، وتزهق ما عليه أعداؤه من باطل وكذب . . . فتقول :

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ
عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ
رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ
أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

والأمر بالدعاء في قوله - سبحانه - : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . . . » للتوبيخ والتعجيز . ومفعولا « زعمتم » محذوفان .

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

أى : قل — أيها الرسول الكريم — لهؤلاء المشركين على سبيل التقريع والتعجيز : هؤلاء آلهتكم الذين زعمتموهم آلهة ، من دون الله ، اطلبوا منهم أن ينفعوكم أو أن يرفعوا عنكم ضراً نزل بكم ، إنهم بالقطع ان يستطيعوا شيئاً من ذلك .

ولذا جاء التأكيد على عجز هذه الآلهة المزعومة بعد ذلك فى قوله — تعالى — : « لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ... » .

أى : هؤلاء الشركاء لا يملكون شيئا ما قل أو كثر لا فى السموات ولا فى الأرض ، بل الذى يملك كل شىء ، هو الله — تعالى — وحده .

فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآلهة ، والكشف عن حقيقتها .

والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق ولأن مثقال الذرة أقل ما يتصور فى الحقارة والقلة .

وذكر — سبحانه — السموات والأرض لقصد التعميم ، إذ هما محل الموجودات الخارجية .

أى : لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون العلوى والسفلى .

وبعد أن نفى عن الشركاء الملكية الخالصة لأى شىء فى هذا الكون ، أتبع ذلك بنفى ملكيتهم لشىء ولو على سبيل المشاركة ، فقال — تعالى — : « وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير » .

أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم شركاء لله — تعالى — فى العبادة ، لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون ملكية خاصة ، ولا يملكون شيئا ما — أيضا — على سبيل المشاركة لغيرهم ، وليس لله — تعالى — أحد يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجاد أو إعدام ، بل الأمر كله إليه وحده .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة ، ملكية أى شىء فى هذا الكون ، سواء أكانت ملكية خالصة . أم ملكية على سبيل المشاركة ، وأثبتت أن المالك والمتصرف فى هذا الكون إنما هو الله - تعالى - وحده ، دون أن يكون فى حاجة إلى عون من تلك الآلهة أم من غيرها.

ثم نفى — سبحانه — أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه — تعالى — فقال : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » .

والشفاعة : من الشفع الذى هو ضد الوتر — أى : الفرد — ومعناها: انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضر .

أى : ولا تنفع الشفاعة عند الله — تعالى — من أحد لأحد ، إلا لمن أذن الله — تعالى — له فى ذلك .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد نفى شفاعة الأصنام لعابديها ، لكنه — سبحانه — ذكر ذلك على وجه عام ، ليكون طريقا برهانيا . أى : لا تنفع الشفاعة فى حال من الأحوال ، أو كائنة لمن كانت ، إلا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة . ومن البين أنهم لا يؤذن فى الشفاعة للكفار ، فقد قال — تعالى — : «لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب ، وعدم الإذن الأصنام أبين وأبين ، فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية . . . » (١) .

وقوله : حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق . . . بيان لما يكون عليه المنتظرون الشفاعة ، من لهفة وقلق .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٣٦ .

والتضعيف فى قوله « فزع » للسلب . كما فى قولهم : مرضت المريض إذا عملت على إزالة مرضه .

فمعنى : « فزع عن قلوبهم » كشف الفزع عنها ، وهدأت أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها من هول وخوف فى هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة

و « حتى » غاية لما فهم من الكلام قبلها ، من أن هناك تلهفا وترقبا من الراجين للشفاعة ومن الشفعاء ، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم قبولها .

والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحـــد إلا لمن أذن الله — تعالى — له فى ذلك ، وفى هذا اليوم الهائل الشديد ، يقف الناس فى قلق ولهفة منتظرين قبول الشفاعة فيهم ، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بسبب إذن الله — تعالى — فى قبولها ممن يشاء ولمن يشاء ، واستبشر الناس وقال بعضهم لبعض ، أو قالوا للملائكة : «ماذا قال ربكم » أى : ماذا قال ربكم فى شأننا ومصيرنا .

وهنا تقول لهم الملائكة ، أو يقول بعضهم لبعض : « قالوا الحق» أى : يقولون قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة لمن ارتضى .

فلفظ «الحق» منصوب بفعل مضمر . أى : قالوا قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف . أى : قالوا : قال ربنا القول الحق .

« وهو » — سبحانه — « العلى » أى : المتفرد بالعلو فوق خلقه « الكبير » أى : المتفرد بالكبرياء والعظمة .

قال صاحب الكشاف — رحمه الله — : فإن قلت : بم اتصل قوله : « حتى إذا فزع عن قلوبهم » ، ولأى شىء وقعت حتى غاية ؟

قلت : اتصل بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتظار للإذن ، وتوقفا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذن لهم أولا؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان ، وطول التربص . .

كأنه قيل : ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وجلين ، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن : تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا «ماذا قال ربكم ، قالوا، قال الحق» أى : القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى . . »(١)

ثم أمر الله - تعالى - رسوله (ﷺ) أن يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ ، من الذى يملك أن يرزقهم ، فقال - سبحانه - : « قل من يرزقكم من السموات والأرض . . »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير ذلك من المنافع .

وقوله - تعالى - : «قل الله» جواب على هذا السؤال ، وهو جواب لا يملكون إلا الاعتراف به :

أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه من جهل : الله وحده هو الذى يرزقكم بما لا يحصى من الأرزاق التى بعضها من السموات ، وبعضها من الأرض .

وقوله - سبحانه - : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » داخل فى حيز الأمر السابق ، ولكن بأسلوب فيه مافيه من الحكمة والتلطف ومن حمل المخاطب على التفكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٠

أى : وقل لهم — أيضاً — أيها الرسول الكريم لقد علمتم — يامعشر المشركين أن المستحق للعبادة هو الله — تعالى — وحده ، لأنه هو الذى خلقكم ورزقكم من السموات والأرض . . .

وإن أحدنا لابد أن يكون على الهدى والآخر على الضلال ، وسنترك تحديد من هو المهتدى ومن هو الضال لعقولكم وضمائركم .

وستعلمون — علم اليقين — بعد التفكر والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق ، وأنتم يامعشر المشركين على الباطل .

فالجملة الكريمة لون من ألوان الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ بأسلوب مهذب حكيم ، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق ، إلى الاستسلام له ، والدخول فيه . . .

قال القرطبى : وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » هذا على وجه الانصاف فى الحجة ، كما يقول القائل لغيره : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق ، وأن صاحبه كاذب ، والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن ، والآخر ضال وهو أنتم ، فكذبهم بأحسن تصريح التكذيب .

والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذى يرزقكم من السموات والأرض . . . »(١) ،

وقوله : « أو إياكم » معطوف على اسم إن ، وخبرها هو المذكور . وحذف خبر الثانى للدلالة عليه .

أى : وإنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هذا الكلام الحكيم فى الدعوة إلى الحق ، بكلام

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٢٩٨ .

لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » أى : وقل لهم المرة الثالثة - أيها الرسول الكريم - أنتم - أيها المشركون - لا تسألون يوم القيامة عن إجرامنا فى حق أنفسنا - إن كنا قد أجرمنا وأخطأنا فى حقها - ، ونحن - أيضاً - لا يسألنا الله - تعالى - عن سبب بقائكم فى الكفر وفى الأعمال السيئة ، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم - عز وجل - ، ونصحناكم بالإقلاع عن الشرك والمعاصى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ، « وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون »(١) .

ثم أمره - سبحانه - أن يذكرهم بيوم القيامة ومافيه من حساب دقيق، فقال : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الله - تعالى - بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا جميعا بحكمه العادل، وهو - سبحانه - « الفتاح العليم » أى : الحاكم فى كل أمر بالحكم الحق المطلع على جميع أحوال عباده.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتوجيه رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يقول لهم قولا يخرس به ألسنتهم ، ويبطل حججهم فقال: « قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء » والرؤية هنا بصرية . ومفعولها الأول الياء، ومفعولها الثانى الاسم الموصول ، ولفظ « شركاء » حال .

أى : وقل لهم - أيضاً - للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم الحجة : أرونى وأطلعونى على أصنامكم التى ألحقتموها بالله - تعالى - فى العبادة ، واتخذتموها شركاء له فى الطاعة ... إنها ماهى إلا أشياء لا تضر ولا تنفع، وأنتم تعرفون ذلك عنها ، وها هى أمامكم واقعها وحالها ينبىء بعجزها التام ، فكيف أشركتموها مع الله - تعالى - فى العبادة والطاعة ؟

---

(١) سورة يونس الآية ٤١ .

فالمقصود من الرؤية إشهادهم على عجزها ، وتبكيتهم على جهالاتهم ، وحضهم على نبذ الشركاء ، وإخلاص العبادة لله الواحد القهار .

ويحتمل أن تكون الرؤية هنا علمية ، فيكون لفظ « شركاء » هو المفعول الثالث .

أي : عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله — تعالى — في العبادة .

ثم زجرهم — سبحانه — عن هذا الضلال فقال : « كلا بل هو الله العزيز الحكيم » أي : كلا ليس الأمر كما زعمتم من أن لله — تعالى — شركاء ، بل هو — سبحانه — العزيز الذي لا يغلبه غالب ، الحكيم في كل أقواله وأفعاله .

وهكذا نجد الآيات الكريمة قد لقنت النبي — صلى الله عليه وسلم — الحجج التي يرد بها على المشركين ، والتي من شأنها أن تحملهم على اعتناق الحق ، واجتناب الباطل ، لو كانوا يعقلون .

ثم بين — سبحانه — وظيفة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورده على شبهات المشركين فقال :

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ
بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ
لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ
فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قال الآلوسي: المتبادر أن « كافة » حال من الناس، قدم إلا عليه للاهتمام؛ وأصله من الكف بمعنى المنع، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر في ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية. فمعنى جاء الناس كافة: جاءوا جميعا . . .

قال ابن عباس : أرسله الله ـ تعالى ـ محمداً (صلى الله عليه وسلم) إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله — تعالى — أطوعهم له . . » (١) .

أى : وما أرسلناك — أيها الرسول الكريم — إلا إلى الناس جميعاً ، لتبشر المؤمن منهم بحسن الثواب ، ولتنذر من أعرض عن الحق الذى جئت به بسوء العقاب : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هذه الحقيقة ، وهى عموم رسالتك وكونك بشيراً ونذيراً » .

« ويقولون » أى : المشركون على سبيل الاستهزاء بما جئتم به « متى هذا الوعد » الذى تهددوننا به وهو قيام الساعة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب .

أخبرونا عنه — أيها المؤمنون — « إن كنتم صادقين » فيما تحدثوننا عنه ، وفيما تدعوننا إليه من إيمان .

وهنا أمر الله — تعالى — رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يرد عليهم رداً فيه كل معانى التهديد والوعيد فقال : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » و « ميعاد » يجوز أن يكون مصدراً مراداً به الوعد ، وأن يكون اسم زمان ، والإضافة للبيان .

والمراد بالساعة الوقت الذى هو فى غاية القلة . وليس ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة .

أى : قل لهم — أيها الرسول الكريم — لا تتعجلوا ـ أيها الكافرون ـ ما أخبرتكم عنه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، ومن أن العاقبة الطيبة ستكون لنا لا لكم ؛ فإن لكم ميقاتا محددا ، وموعدا معلوما ، عند ما يأذن

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ١٤١

الله — تعالى — بحلوله وبانتهاء حياتكم ويبعثكم . . .

« لا تستأخرون عنه ساعة ، من الزمان ، ولا تستقدمون عنه ساعة » كما قال - تعالى - : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » (١) .

وكما قال — سبحانه — : « وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد » (٢) .

ثم حكى — سبحانه — بعض الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى شأن القرآن الكريم ، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب ، وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على غيره ، قال — تعالى — :

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن .

والمراد بالذى بين يديه فى قوله — تعالى — : «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه . . . . » : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل .

قالوا : وذلك لأن المشركين سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأخبروهم بأن صفاته فى التوراة والإنجيل ، فغضبوا وقالوا ما قالوا (٣) .

أى : وقال الذين كفر بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا

---

(١) سورة نوح الآية ٤

(٢) سورة هود الآية ١٠٤ — ١٠٥

(٣) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٤٤

لن نؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد (ﷺ) — من عند ربك ، ولا نؤمن — أيضا — بالكتب السماوية الأخرى التى تؤيد انك رسول من عند الله — تعالى — . فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل ، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره .

قال الإمام الرازى : لما بين — سبحانه — الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بكل كافرين بين كفرهم العام بقوله : «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه» وقوله : «ولا بالذى بين يديه» المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر .

ويحتمل أن يكون المعنى لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام ، ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه . .»(١) .

وقوله — تعالى — : «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول» بيان لأحوالهم السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر .

و «لو» شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول «ترى» محذوف أيضا و «موقوفون» أى محبوسون للحساب يوم القيامة .

يقال : وقفت الرجل عن فعل هذا الشىء ، إذا منعته وحجزته عن فعله .

(١) تفسير الفخر الرازى - بتصرف وتلخيص جـ ٧ ص ١٨

أى ولو ترى - أيها المخاطب - حال الظالمين وقت إحتباسهم عند ربهم يوم القيامة ، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .

لو ترى ذلك لرأيت أمراً عجيباً ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .

والتعبير بقوله - سبحانه - : « ولو ترى » يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحساب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم فى سجنه إنتظاراً لمصيره السىء .

وقوله : « عند ربهم » تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .

وقوله - سبحانه - : «يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ، لولا أنتم لكنا مؤمنين ، تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض .

والمراد بالذين استضعفوا . الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .

أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة : لولا أنتم منعتمونا عن إتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

إنهم يقولون لهم فى موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله فى الدنيا ، عند ما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم :

وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق , ويحكى ذلك القرآن فيقول : « قال الذين استكبروا للذين استضعفوا » على سبيل التوبيخ والتقريع .

« أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم » كلا ، إننا ما فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين أتباع الحق .

« بل » أنتم الذين « كنتم مجرمين » فى حق أنفسكم ، حيث اتبعتمونا باختياركم ، ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور .

ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن المرة الثانية ردهم عليهم فقال : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا » فى الرد عليهم بحسرة وألم : « بل مكر الليل والنهار » أى قالوا لهم أنتم لستم صادقين فى قولكم لنا : إنكم لم تصدونا عن أتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار ، وإغراءكم لنا بالبقاء على الكفر وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم وأمركم لنا بأن « نكفر بالله — تعالى — ونجعل له أندادا » أى شركاء فى العبادة والطاعة .

كل ذلك هو الذى أحال بيننا وبين إتباع الحق الذى جاءنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شراً .

وهو هنا فاعل لفعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان مكركم بنا فى الليل والنهار ، فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا

وقوله : « إذ تأمروننا . . . » ظرف للمكر . أى : بل مكركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه — تعالى — هو الذى حال بيننا وبين أتباع الحق والهدى .

قال الجمل : وقوله « بل مكر الليل والنهار » يجوز رفع « مكر » من ثلاثة أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم فى هذين الوقتين الثانى : أن يكون مبتدأ خبره محذوف . أى : مكر الليل صدنا عن أتباع الحق الثالث : العكس . أى : سبب كفرنا مكركم ، وإضافة المكر إلى الليل والنهار إما على الإسناد المجازى كقولهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه وإما على الإتساع فى الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه . . (١) :

والضمير المرفوع فى قوله — سبحانه — : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب يعود على الأتباع والزعماء ، وأسروا من الإسرار بمعنى الكتمان والإخفاء .

أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستكبرون الندامة والحسرة حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه ودفنت الكلمات فى صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من الكمد الذى يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق .

فالمقصود من أسرار الندامة : بيان أن عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شاهدوه من عذاب غليظ قد أعد لهم .

وقيل إن « أسروا الندامة » بمعنى أظهروها ، لأن لفظ أسر من الأضداد

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٥٨

قال الآلوسي ما ملخصه : « وأسروا ، أي : أضمر الظالمون من الفريقين « الندامة » على ما كان منهم في لدنيا . . . « لما رأو العذاب » لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق .

وقيل: أسروا الندامة . بمعنى أظهروها ، فإن لفظ « أسر » من الأضداد، إذا الهمزة تصلح للإثبات وللسلب ، فمعنى أسره : جعله سره ، أو أزال سره . . . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : « وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزوون إلا ما كانوا يعملون » .

والأغلال . جمع غل وهي القيود التي يقيد بها المجرمون .

أي : وجعلنا القيود في أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم متبوعا ، وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة ، وأقوالهم القبيحة .

وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا ، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ، ومن ثم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون إحترام من المستضعفين لزعمائهم الذين كانوا يذلونهم في الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا ، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة سواء « ووجدوا ما عملو حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

* * *

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ص ١٤٦ .

ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من الأقوال الزائفة ، التى كان المترفون يتذرعون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التى لقنها - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرس بها ألسنتهم ، ويزيل بها شبهاتهم قال - تعالى - :

وَمَآ
أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا
زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا
عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ
فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله - تعالى - : « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ... » : هذه تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به ،

والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتكثر بذلك على المؤمنين . . . وأنه - سبحانه - لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل مكة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . . »(١)

والمعنى : وما أرسلنا في قرية ، من القرى «من نذير» ينذر أهلها بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم .

«إلا قال مترفوها» أي : أي إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها المتمرغون في النعم فيها ، لمن جاءوا لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق .

«إنا بما أرسلتم به» من الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - «كافرون» وبما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون .

فالآية الكريمة تحكي موقف المترفين في كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء المترفين في كل زمان ومكان ، كانوا أعداء للأنبياء والمصلحين ، لأن الترف من شأنه أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا، ويهدى إلى الانغماس في الرذائل والشهوات الدنيا .

- ثم يحكي القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبجح والتعالى على المؤمنين ، فقال - تعالى - : «وقالوا» أي المترفون الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء «نحن أكثر أموالا وأولادا» منكم - أيها المؤمنون - ، إذ أموالنا من أموالكم ، وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولولا أننا أفضل عند الله منكم ، لما أعطانا ما لا يعطيكم .

فنحن نعيش حياتنا في أمان واطمئنان «وما نحن بمعذبين» بشيء من العذاب الذي تعدوننا به لا في الدنيا وفي الآخرة .

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٨٥ .

قال الامام إبن كثير عند تفسيره لهـــذه الآية : افتخر المترفون ـ بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، وإعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال ـ تعالى ـ : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون »(١).

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصحح لهؤلاء المترفين خطأهم ، وأن يكشف لهم عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله ـ تعالى ـ وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو الفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال ـ تعالى ـ « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وبسط الرزق : سعته وكثرته ، وتقديره : تقليله وتضييقه .

أى . قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاهلين « إن ربى » وحده هو الذى « يبسط الرزق لمن يشاء » أن يبسطه له « ويقدر » أى : ويقتر الرزق ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه . والأمر فى كلتا الحالتين مرده إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته فى خلقه ...

وربما يوسع رزق العاصى ويضيق رزق المطيع ، أو العكس وربما يوسع على شخص فى وقت ويضيق عليه فى وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هذه الحقيقة التى إقتضتها حكمة الله ـ تعالى ـ وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والكرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا ـ لجهلهم وإنطماس بصائرهم ـ أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للابتلاء والاختبار ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه . . .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٩ .

ثم زاد - سبحانه - هذه القضية توضيحا وتبيينا فقال : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى . . . . » .

الزلفى « مصدر كالقربى ، وإنتصابه على المصدرية من معنى العامل . أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتى من شأنها أن تقربكم الينا قربى لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منا لكم ، ولا تكريم منا لكم ، وإنما الذى يقربكم منا هو الإيمان والعمل الصالح .

كما وضح - سبحانه - هذه الحقيقة فى قوله بعد ذلك : « إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون » .

أى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المترفون - من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب ولكن الحق والصدق أن الذى ينجيكم من ذلك ويقربكم منا ، هو الإيمان والعمل الصالح ، فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله - تعالى - الجزاء الحسن المضاعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون مطمئنون .

قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : « إلا من آمن وعمل صالحا » هو إستثناء منقطع فيكون محله النصب . أى : لكن من آمن وعمل صالحا . . والإشارة بقوله : « فأولئك » إلى « من » والجمع بإعتبار المعنى ، وهو مبتدأ ، وخبره « لهم جزاء الضعف » أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول . أو فأولئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المصرين على كفرهم فقال : « والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ، أولئك فى العذاب محضرون » .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٢٠ .

أى : والذين يسعون فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .

« معاجزين » .

أى . زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم « أولئك » الذين يفعلون ذلك « فى العذاب محضرون » أى : فى عذاب جهنم مخلدون، حيث تحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها .

وقوله - سبحانه - : « قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة التى سبق الحديث عنها ، وهى أن التوسع والتضييق فى الرزق بيد الله — تعالى — وحده .

والضمير فى قوله - تعالى - « له » يعود إلى الشخص الموسع عليه أو المضيق عليه فى رزقه . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : إن ربى - عز وجل - يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيق هذا الرزق على من يشاء أن يضيقه منهم ، وليس فى ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة لحكمته فى خلقه — سبحانه — .

« وما أنفقتم» أيها المؤمنون « من شىء »فى سبيل الله - تعالى - وفى أوجه طاعته « فهو » - سبحانه - « يخلفه » أى : يعوضه لكم بما هو خير منه يقال : فلان أخلفه لفلان وأخلفه عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل .

« وهو خير الرازقين » أى : وهو — سبحانه — خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هـــو بتقديره وإرادته ، وقد جرت سنته — سبحانه — أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من شبهات المشركين، ومن أقوالهم الباطلة، وردت عليهم بما يزهق باطلهم، ويمحو شبهاتهم، لكى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم.

ثم بين - سبحانه - حال أولئك المشركين يوم القيامة، وكيف أن الملائكة يكذبونهم فى مزاعمهم، فقال - تعالى - .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ
وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن
كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

أى : واذكر — أيها العاقل — لتعتبر وتتعظ « يوم يحشرهم جميعا » أى : يجمع الله — سبحانه — الكافرين جميعا — الذين استضعفوا فى الدنيا والذين استكبروا — .

« ثم يقول » - عز وجل - « للملائكة » على سبيل التبكيت والتقريع للمشركين « أهؤلاء » الكافرون « كانوا إياكم يعبدون » أى : أهؤلاء كانوا يعبدونكم فى الدنيا ، وأنتم رضيتم بذلك .

و « هؤلاء » مبتدأ . وخبره « كانوا يعبدون » و « إياكم » مفعول يعبدون .

وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن الكفار من كان يعبدون الأصنام ، ومن كان يعبد غيرها ، لأن المقصود من الخطاب حكاية ما يقول الملائكة فى الرد عليهم .

قال صاحب الكشاف : هذا الكلام خطاب الملائكة ، وتقريع للكفار وارد على المثل السائر : « إياك أعنى واسمعى يا جاره » ونحوه قوله - تعالى - لعيسى : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . . . » وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآء مما وجه عليهم من السؤال ، والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون التقريع للمشركين أشد ، والتعيير أبلغ ، وهوانهم ألزم . . (١) .

وقوله — تعالى — : « قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم . . » حكاية لأقوال الملائكة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٨٧

أى : قال الملائكة فى الإجابة على سؤال خالقهم «سبحانك» أى : ننزهك ونقدسك عن أن يكون لك شريك فى عبادتك وطاعتك «أنت ولينا من دونهم» أى : أنت الذى نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين أى موالاة أو قرب، ولا دخل لنا فى عبادتهم لغيرك .

ثم صرحوا بما كان المشركون يعبدونه فى الدنيا فقالوا : «بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون» .

أى : إن هؤلاء المشركين لا علم لنا بأنهم كانوا يعبدوننا، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا، هم إنما كانوا يعبدون فى الدنيا «الجن» أى الشياطين، وكان أكثر هؤلاء المشركين يؤمنون بعبادة الشياطين، ويطيعونهم فيما يأمرونهم به، أو ينهونهم عنه .

فقوله - تعالى - «بل كانوا يعبدون الجن» إضراب إنتقالى، لبيان السبب فى شرك هؤلاء المشركين، وتصريح بمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا .

قال الجمل : فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشياطين، فما وجه قوله - تعالى - «أكثرهم بهم مؤمنون» فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم يطعهم ؟

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم، فقالوا أكثرهم، لأن الذين رأوهم وأطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن، ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حالة من الكفار .

الثانى : هو أن العبادة عمل ظاهر، والإيمان عمل باطن، فقالوا : بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم، وقالوا : أكثرهم بهم مؤمنون

عند على القلب ، لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما فى القلوب ، فإن القلب لا يطلع على ما فيه إلا الله . . . »(١)

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الملك فى يوم الحساب له وحده فقال : «فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا» .

أى : فاليوم لا يملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين ، أو أن يضره ، بل الذى يملك كل ذلك هو الله - تعالى - وحده .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن مرد النفع والضر فى هذا اليوم إلى الله - تعالى وحده ، فالعابدون لا يملكون شيئا ، والمعبودون كذلك لا يملكون شيئا .

«ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون» أى : ونقول فى هذا اليوم الهائل الشديد للذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق بعبادتهم لغيرنا ، نقول لهم «ذوقوا» فظاعة وشدة عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، وتنكرون أن يكون هناك بعث أو حساب ، أو ثواب أو عقاب .

• • •

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من أقوال هؤلاء المشركين فى شأن النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن القرآن الكريم ، وتهددهم بسوء المصير إذا استمروا فى طغيانهم وجهلهم فتقول :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل :

وقوله : «تتلى» من التلاوة . وهى قراءة الشىء بتدبر وتفهم .

(١) حاشية الجمل جـ ٣ ص ٤٧٨ .

أى : وإذا ماتليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا (ﷺ) فيما يبلغه عنا .

« قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التالى لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التى يعبدها آباؤكم الأقدمون .

ويعنون بقولهم « ماهذا إلا رجل » : الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به ، والتحقير من شأنه (صلى الله عليه وسلم) .

وقالوا : « يريد أن يصـــدكم عما كان يعبد آباؤكم » لإثارة حمية الجاهلية فيهم فكأنهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلكم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التى تربط بينكم وبين آبائكم الذين أنتم قطعة منهم .

ولم يكتفوا بالتشكيك فى صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) بل أضافوا إلى ذلك التكذيب للقرآن الكريم ، ويحكى — سبحانه — ذلك فيقول : « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى » .

أى : « وقالوا فى شأن القرآن الكريم ؛ ماهذا الذى يتلوه محمد (صلى الله عليه وسلم) علينا ، إلا « إفك » أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب فى ذاته ، مفترى » أى : مختلق على الله — تعالى — من حيث نسبته إليه .

فقوله « مفترى » صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكأنهم يقولون — قبحهم الله — ما هذا القرآن إلا كذب فى نفسه ، ونسبته إلى الله — تعالى — ليست صحيحة .

ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللقرآن، تكذيباً عاماً لكل ما جاءهم به الرسول من حق فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، إن هذا إلا سحر مبين » .

أى : وقال الكافرون فى شأن كل حق جاءهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ما هذا الذى جئنا به إلا سحر واضح .

وهكذا نراهم - لعنادهم وجهلهم - قد كذبوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكذبوا القرآن . وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم ، أرشدهم إليه (صلى الله عليه وسلم) ، إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) والثانى يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها .

ثم بين - سبحانه - أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون ، فقال - تعالى - : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » .

أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأتهم بكتب يدرسونها ويقرءونها ليعرفوا منها أن الشرك حق ، فيكون لهم عذرهم فى التمسك به . وكذلك لم نرسل إليهم قبلك - أيها الرسول الكريم - نذيرا يدعوهم إلى عبادة الأصنام ، ويخوفهم من ترك عبادتها .

وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا الإنكار للحق الذى جاءهم ؟ إن أمرهم هذا لهو فى غاية الغرابة والعجب .

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيلهم والتهكم بهم ، ونفى أن يكون عندهم حتى ما يشبه الدليل على صحة ما هم فيه من شرك .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم

بما كانوا به يشركون ، وقوله - عز وجل - : «أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون » .

ثم بين لهم - سبحانه - بعد ذلك هو أن أمرهم ، وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقوهم ، فقال : «وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى ، فكيف كان نكير » .

والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه . تقول : عندى عشر دينار ومعشار دينار قال أبو حيان : والمعشار مفعال من العشر ، ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع ، ومعناهما : العشر والربع . . »(١) .

والضمير فى قوله «وما بلغوا » يعود لكفار مكة ، وقوله : « ما آتيناهم» وفى قوله : « فكذبوا رسلى » يعود إلى الأمم السابقة .

والنكير : مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التى جاءت على وزن فعيل.

والمعنى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لتكذيب قومك لك ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم ، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة . . . عشر ما كان عليه سابقوهم ، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم ، أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم جميعاً .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « فكيف كان نكير » للتهويل ، والجملة الكريمة معطوفة على مقدر ، والمعنى : لحين تمادوا فى تكذيب رسلى، جاءهم إنكارى بالتدمير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالتدمير والإهلاك ؟ لقد كان شيئا هائلا فظيعا تركهم فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، فعلى قومك أن يحذروا من أن يصيبهم مثله .

(١) تفسير البحر المحيط جـ٧ ص ٢٩٠

وجعل — سبحانه — التدمير إنكارا ، تنزيلا الفعل منزلة القول ، كما فى قول بعضهم : ونشتم بالأفعال لا بالتكلم .

ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله « وما بلغوا » يعود على الذين من قبلهم ، وفى قوله « آتيناهم » يعود إلى كفار مكة .

وقد رجح الإمام الرازى هذا الرأى فقال ما ملخصه . قال المفسرون : معنى الآية ، وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين . . . . ثم إن الله أخذ هؤلاء المتقدمين ، دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا رسلهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء — وهم قومك — .

ثم قال — رحمه الله — : وعندى وجه آخر فى معنى الآية ، وهو أن يقال : وكذب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، أى : الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قومك من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتابك — يا محمد — أكمل من سائر الكتب .

فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسلهم — مع أنهم لم يؤتوا معشار ما أوتى قومك من البيان — ، فكيف لا أنكر على قومك بعد تكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل . . » (١) .

ويبدو لنا أن المعنى الأول الذى عبر عنه الإمام الرازى بقوله : قال المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه يفيد التقليل من شأن مشركى مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية القوة والغنى .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٤

وفى القرآن الكريم آيات متعددة تؤيد هـــذا المعنى ، منها قوله — تعالى — : « أولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١) .

* * *

وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين فى شأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى شأن القرآن . . . وبعد هذا الرد الملزم لهم ، والمزهق لباطلهم . بعد كل ذلك لقن الله — تعالى — نبيه (صلى الله عليه وسلم) الحجج الساطعة ، والأقوال الحكيمة ، التى تهدى إلى الرشد بأبلغ أسلوب ، وأصدق بيان ، فقال تعالى :

(١) سورة الروم : الآية ٩

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ
وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم
بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ
بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا
يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ
وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا
فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

وقوله — تعالى — « أعظكم » من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير والبر بكلام مؤثر رقيق . يقال : وعظه يعظه وعظا وعظة ، إذا أمره بالطاعة ووصاه بها .

وقوله « بواحدة » صفة لموصوف واحد «

والتقدير : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب فى شأنك وفى شأن ما جئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة أو بخصلة واحدة .

ثم فسر - سبحانه - هذه الكلمة بقوله : «أن تقوموا لله مثنى وفرادى» .

والمراد بالقيام هنا : التشمير عن ساعد الجد ، وتلقى ما جاءهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقلب مفتوح ، وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد .

«ومثنى وفرادى» أى : متفرقين إثنين إثنين ، وواحدا واحدا ، وهما منصوبان على الحال .

«ثم تتفكروا» بعد ذلك فى أمر هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى أمر رسالته ، وفى أمر ما جاء به من عند ربه ، فعند ذلك ترون أنه على الحق ، وأنه قد جاءكم بما يسعدكم .

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل إثنين بموضوعية وإنصاف فى أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد - أيضاً - فى شأن هذا الرسول ، من غير تعصب أو هوى .

وقدم الإثنين فى القيام على المنفرد ، لأن تفكير الإثنين فى الأمور بإخلاص واجتهاد وتدبر ، أجدى فى الوصول إلى الحق من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا فى جماعة ؛ لأن العقلية الجماعية كثيراً ما تتبع الانفعال الطارىء ، وقلما تتريث فى الحكم على الأمور .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : والمعنى :

إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم - من الباطل - ، وهى : أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، متفرقين إثنين إثنين ، وواحدا واحدا ، ثم تتفكروا ، فى أمر محمد (ﷺ) وما جاء به .

أما الإثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما أتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق .

وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفه من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك: يقل الانصاف ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « ما بصاحبكم من جنة ، كلام مستأنف جىء به لتنزيه ساحته(ﷺ)عما افتراه عليه المفترون من كونه قد أصيب بالجنون

أى : اجتمعوا إثنين إثنين ، أو واحد واحدا ، ثم تفكروا بإخلاص وروية ، فسترون بكل تأكيد أن محمدا (ﷺ) ليس به شىء من الجنون ، وإنما هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا ، وأفضلهم علماً ، وأحسنهم عملا ، وأزكاهم نفساً ، وأنقاهم قلباً ، وأجمعهم لكل كمال بشرى .

وقوله - تعالى - : « وإن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» بيان

(١) تفسير الكشاف ج٣ ص ٥٩٠

لوظيفته (ﷺ) أى : ليس به (صلى الله عليه وسلم) من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب الشديد الذى سينزل بكم يوم القيامة ، إذا ما بقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا العذاب ليس بعيداً عنكم

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بريدة عن أبيه قال : خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوما ، فنادى ثلاث مرات فقال : « إنما مثلى ومثلكم كمثل قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه وقال وقال : « أيها الناس أوتيتم . أيها الناس أوتيتم .

وبهذا الإسناد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « بعثت أنا والساعة جميعا ، إن كادت لتسبقنى » (١) .

ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم فقال : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد » .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - بعد أن دعوتهم إلى التفكير الهادى ، المتأنى فى أمرك : إنى ما طلبت منكم أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم ، لأنى لا ألتمس أجرى إلا من الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - على كل شىء شهيد ورقيب ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قال الآلوسى قوله : « قل ما سألتكم من أجر » أى : مهما سألتكم من

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٢

نفع على تبليغ الرسالة « فهو لكم » والمراد نفى السؤال رأساً ، كقولك لصاحبك إن أعطيتنى شيئا فخذه ، وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئا : فما شرطية، مفعول « سألتكم » وقوله « فهو لكم » الجواب — .

وقيل هى موصولة ، والعائد محذوف ، ومن للبيان ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط . أى : الذى سألتكموه من الأجر فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم . . .(١) .

ثم أمره ـ سبحانه ـ للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لا قدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله ـ تعالى ـ قد سلحه بما ينصره عليهم فقال : « قل ربى يقذف بالحق علام الغيوب » .

وأصل القذف : الرمى بقوة وشدة والمراد به هنا : ما يوحيه الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرآن ، ومن توجيهات وإلهامات . ، والباء فى قوله « بالحق » للسببية .

أى . قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ إن ربى يلقى الوحى إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذى كلفهم بتبليغه إلى الناس ، وهو ـ سبحانه ـ وحده علام الغيوب .

قال الجمل : ما ملخصه قوله : « يقذف بالحق » يجوز أن يكون مفعوله محذوفا ، لأن القذف فى الأصل الرمى ، وعبر به هنا عن الإلقاء . أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو متلبساً بالحق .

ويجوز أن يكون التقدير : « يقذف الباطل بالحق » ، كما قال ـ تعالى ـ « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه » .

ويجوز أن يكون المعنى : قل إن ربى يقضى ويحكم بالحق ، بتضمينه

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ٥٥ .

« يقذف » معنى يقضى ويحكم »(١) .

ثم أمره — عز وجل — المرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم سيزول لا محالة وسينتهى أمره إنتهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال — تعالى — : « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

والإبداء : هو فعل الأمر إبتداء . والإعادة : فعله مرة أخرى ولا يخلو الحى عنهما ، فعدمهما كناية عن هلاكه ، كما يقول : فلان يأكل ولا يشرب كناية عن هلاكه .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء الحق المتمثل فى دين الإسلام الذى أرسلنى به الحكيم ربى ، وما دام الإسلام قد جاء ، فإن الباطل المتمثل فى الكفر الذى أنتم عليه ، قد آل له أن يذهب وأن يزول ، وأن لا يبقى له إبداء أو إعادة ، فقد إندثر وأهيل عليه بالتراب إلى غير رجعة .

ثم أمره — سبحانه — المرة الخامسة أن يصارحهم بأنه مسئول أمام الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسئولين عن هدايته أو ضلاله ، فقال — تعالى — : « قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن إهتديت فبما يوحى إلى ربى » .

أى : وقل لهم — أيها الرسول الكريم — على سبيل الإرشاد والتنبيه ، إنى إن ضللت عن الصراط المستقيم ، وعن أتباع الحق ، فإنما إثم ضلالى على نفسى وحدها لا عليكم ، وإن اهتديت إلى طريق الحق والصواب ، فاهتدائى بسبب ما يوحيه الله — تعالى — إلى من توجيهات حكيمة ،

(١) حاشيه الجمل جـ ٣ ص ٤٨٠ .

وإرشادات قويمة ، إنه — سبحانه — « سميع » لكل شيء « قريب » منى ومنكم :

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت الرسول — صلى الله عليه وسلم — خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل طريق للتشكيك فى شأن دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو كانوا يعقلون :

وأخيرا نرى سورة « سبأ » تختتم بهذه الآيات ، التى تصور تصويرا مؤثرا ، حالة الكافرين عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب ، يعلوهم الهلع والفزع ، ويحال بينهم وبين ما يشتهون ، لأن توبتهم جاءت فى غير أوانها . . . قال — تعالى — :

« ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب .

وجواب « لو » محذوف . وكذلك مفعول « ترى » . والفزع : حالة من الخوف والرعب تعترى الإنسان عندما يشعر بما يزعجه ويخيفه . والفوت النجاة والمهرب .

وهذا الفزع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث والحساب ، أو عند قبض أرواحهم .

أى : ولو ترى — أيها العاقل — حال الكافرين ، وقت خروجهم من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفزع والهلع . . لرأيت شيئا هائلا ، وأمرا عظيما . . .

وقوله « فلا فوت » أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة يومئذ من الوقوف بين يدى الله — تعالى — للحساب ، ولمعاقبتهم على كفرهم وجحودهم . .

وقوله : « وأخذوا من مكان قريب » معطوف على « فزعوا » أى : فزعوا دون أن ينفعهم هذا الفزع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم السيء من مكان قريب من موقف الحساب .

قال الآلوسى : والمراد بذكر قرب المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم ، إلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله - عز وجل - . »(١) .

« وقالوا آمنا به » أى : وقال هؤلاء الكافرون عند مارأوا العذاب المعد لهم فى الآخرة : آمنا بالله - تعالى - وبأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا معبود بحق سواه ، وآمنا بهذا الدين الذى جاءنا به رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله - سبحانه - : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد » بيان لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان فى هذا الوقت .

والتناوش : التناول . يقال : فلان ناش الشىء ينوشه نوشا إذا تناوله ومنه قولهم : تناوشوا بالرماح ، أى : تناول بعضهم بعضا بها .

أى : لقد قال بعد البعث آمناً بهذا الدين ، ومن أين لهم فى الآخرة تناول الإيمان والتوبة من الكفر ، وكان ذلك قريباً منهم فى الدنيا فضيعوه وكيف يظفرون به فى الآخرة وهى بعيدة عن دار الدنيا التى هى محل قبول الإيمان .

فالجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب فى نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ « أنى » .

قال صاحب الكشاف : والتناوش والتناول أخوان . إلا أن التناوش تناول سهل لشىء قريب .

وهذا تمثيل لطلبهم مالا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى هذا الوقت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٥٧

كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة - أى : من مكان بعيد - « كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه » (١) .

وقوله - سبحانه - « وقد كفروا به من قبل » أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل فى الدنيا ، عندما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله - تعالى - : « ويقذفون بالغيب من مكان بعيد » بيان لما كانوا عليه فى الدنيا من سفاهة فى القول ، وجرأة فى النطق بالباطل ، وفيما لا علم لهم به .

والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : هو يقذف ويرجم بالغيب والجملة الكريمة معطوفة على قوله : « وقد كفروا به من قبل » .

أى : لقد كفروا بهذا الدين بالدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال لا علم لهم بها وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة . فقد نسبوا إلى الله - تعالى - الولد والشريك ، ويقولون فى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنه ساحر .. وفى شأن البعث : إنه لا حقيقة له ، وفى شأن القرآن : إنه أساطير الأولين .

فالمقصود بالآية تقريعهم وتجهيلهم ، على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان حرمانهم التام مما يشتهونه فقال : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٥٩٣

وقوله «حيل» فعل مبنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز. تقول حال الموج بينى وبين فلان . أى : منعنى من الوصول إليه ، ومنه قوله — تعالى — : «وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» .

أى : وحجز وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة «وبين مايشتهون» ويتمنون من قبول إيمانهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا ... حيل بينهم وبين كل ذلك ، «كما فعل بأشياعهم من قبل» ، أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم الذين سبقوهم فى الكفر .

«إنهم كانوا» جميعاً على نمط واحد «فى شك» من أمر هذا الدين «مريب» أى : موقع فى الريبة .

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «سبأ» نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه — القاهرة — مدينة نصر

د . محمد سيد طنطاوى — مساء الأحد ٢٨ من رمضان سنة ١٤٠٥ هـ

١٦ - ٦ - ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصحفة
	المقدمه ..	١٣٧
١	الحمد لله الذى له ما فى السموات . .	١٤٩
٦	ويرى الذين أوتوا العلم ..	١٥٧
١٠	ولقد آتينا داود منا فضلا ..	١٦٢
١٥	لقد كان لسبأ فى مسكنهم . .	١٧٠
٢٢	قل ادعوا الذين زعمتم ..	١٨٠
٢٨	وما أرسلناك إلا كافه . .	١٨٨
٣١	وقال الذين كفروا لن نؤمن . .	١٨١
٣٤	وما أرسلنا فى قرية من نذير . .	١٩٦
٤٠	ويوم يحشرهم جميعا . .	٢٠١
٤١	وإذا تتلى عليهم آياتنا . .	٢٠١
٤٦	قل انما أعظكم بواحدة . .	٢١٠
٥١	ولو ترى اذ فزعوا . .	٢١٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة فاطر

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيد

١ — سورة فاطر هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة الفرقان — كما ذكر صاحب الإتقان —(١).

وهي من السور المكية الخالصة، وتسمى أيضاً — بسورة «الملائكة» قال القرطبي: هي مكية في قول الجميع، وهي خمس وأربعون آية،(٢)

٢ — سورة فاطر هي آخر السور التي افتتحت بقوله — تعالى — «الحمد لله» وقد سبقها في هذا الافتتاح سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ.

قال — سبحانه — في افتتاح سورة «فاطر»: الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير».

٣ — ثم تحدث — سبحانه — بعد ذلك عن مظاهر نعمه على عباده، ورحمته بهم، فقال: «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم...»

٤ — ثم توجه السورة الكريمة نداءين إلى الناس، تأمرهم في أولهما بشكر الله — تعالى — على نعمه، وتنهاهم في ثانيهما عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا وعن اتباع خطوات الشيطان..

---

(١) الإتقان في علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ للسيوطي.

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٣١٨.

قال - سبحانه - : « يأيها الناس أذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . . . » .

يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » .

٥ — وبعد أن تسلى السورة الكريمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، تأخذ فى بيان مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، فتذكر قدرته - سبحانه - فى إرسال الرياح والسحب ، وفى خلقه للإنسان من تراب ، وفى إيجاده للبحرين : أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والثانى : ملح أجاج ، وفى إدخاله الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وفى تسخيره للشمس والقمر . .

قال - تعالى - : وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » .

٦ — ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثا إلى الناس ، بين لهم فيه : إفتقارهم إليه - تعالى - وحاجتهم إلى عونه وعطائه ، وتحمل كل إنسان لمسئولياته ولنتائج أعماله . .

كما بين لهم - سبحانه - أن الفرقان بين الهدى والضلال ، كالفرق بين الإبصار والعمى ، وبين النور والظلمات ، وبين الحياة والموت ، وبين الظل والحرور .

قال - تعالى - : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور

ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور . .

٧ — ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده ، ومن الثواب العظيم الذى أعده ـ سبحانه ـ لمن يتلون كتابه ولمن يحافظون على فرائضه ، وعن عقابه الأليم للكافرين الجاحدين لنعمه . .

قال ـ تعالى ـ : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور . إن الذين يتلون كتاب الله وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويرجون تجارة لن تبور .

ثم قال ـ سبحانه ـ : «والذين كفروا لهم نار جهنم ، لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور . . .»

٨ — ثم انتقلت السورة الكريمة فى أواخرها إلى الحديث عن جهالات المشركين ، حيث عبدوا من دون الله ـ تعالى ـ ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، وعن مكرهم السيء الذى لا يحيق إلا بأهله ، وعن نقضهم لعهودهم حيث «أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . . »

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان سعة رحمته بالناس فقال : «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا» .

٩ — وهكذا نرى سورة «فاطر» قد طوفت بالنفس الإنسانية فى أرجاء هذا الكون ، وأقامت الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، عن طريق نعم الله ـ تعالى ـ المبثوثة فى الأرض وفى السماء ، وفى الليل وفى النهار ، وفى

الشمس وفى القمر ، وفى الرياح وفى السحب ، وفى البر وفى البحر .. وفى غير ذلك من النعم التى سخرها ـ سبحانه ـ لعباده .

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وساقت له ما يسليه ويزيده ثباتا على ثباته ، وما يرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر ـ الثلاثاء ٨ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ

٢٥ / ٦ / ١٩٨٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)

افتتحت سورة « فاطر » - كما سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لسورة «سبأ» بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة وغيرها .

و « ال » فى الحمد للاستغراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء هو الله - تعالى -(١) .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة : الفاتحة - الأنعام - الكهف - سبأ .

وقوله : «فاطر السموات والأرض» أى خالقهما وموجدهما على غير مثال يحتذى ، إذ المراد بالفطر هنا : الابتداء والاختراع للشيء الذى لم يوجد ما يشبهه من قبل .

قال القرطبي : والفاطر : الخالق ، والفطر — بفتح الفاء — : الشق عن الشيء . يقال : فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير ، أى : طلع ، وتفطر الشيء ، أى : تشقق .

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما «فاطر السموات والأرض» حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : أنا ابتدأتها .

والمراد بذكر السموات والأرض : العالم كله ، ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء ، قادر على الإعادة » (١) .

والمعنى : الحمد المطلق ، والثناء التام الكامل لله — تعالى — وحده ، فهو — سبحانه — الخالق للسموات والأرض ، المكون بأمره ، دون أن يسبقه إلى ذلك سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك .

وقوله — تعالى — : «جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع» بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته — تعالى — التى لا يعجزها شيء .

والملائكة : جمع ملك ، والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك ، وهم جند من خلق الله — تعالى — وقد وصفهم — سبحانه — بصفات متعددة ، منها : أنهم «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» وأنهم «عباد مكرمون .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٤ ص ٣١٩

لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

قال الجمل : وقوله : «جاعل الملائكة» أى : بعضهم ، إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم ، وقوله : «أولى أجنحة» نعت لقوله «رسلا» ، وهو جيد لفظاً لتوافقهما تنكيرا . أو هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهى صفة كاشفة . » (١) .

وقوله : «مثنى وثلاث ورباع » أسماء معدول بها عن إثنين إثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهى ممنوعة من الصرف ، للوصفية والعدل عن المكرر وهى صفة لأجنحة .

أى : الحمد لله الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، والذى جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه ، وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم ما يأمرهم — سبحانه — بتبليغه إليهم .

وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوى أجنحة عديدة . منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأن المراد بهذا الوصف ، بيان كثرة الأجنحة لا حصرها .

قال الآلوسى ما ملخصه قوله : «جاعل الملائكة رسلا . . . » معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه الصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالاته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه ، كالأمطار والرياح وغيرها .

وقوله : «مثنى وثلاث ورباع» معناه : أن من الملائكة من له جناحان

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٨٢

ومنهم من له ثلاث ، ومنهم من له أربعة ، ولا دلالة فى الآية على نفى الزيادة، وما ذكر من عدد للدلالة على التكثير والتفاوت ، لا للتعيين ولا لنفى النقصان عن إثنين .

فقد أخرج الشيخان عن ابن مسعود فى قوله — تعالى — « لقد رأى من آيات ربه الكبرى وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رأى جبريل وله ستمائة جناح (١) .

وقوله — تعالى — : «يزيد فى الخلق مايشاء» إستئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال قدرته ، ونفاذ إرادته .

أى: يزيد - سبحانه - فى خلق كل ما يريد خلقه مايشاء أن يزيده من الأمور التى لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص فى الخلق مايشاء ، والكل جار على مقتضى الحكمة والتدبير .

قال صاحب الكشاف : قوله « يزيد فى الخلق مايشاء » أى : يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما يقتضيه مشيئته وحكمته .

والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة وتمام الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجرأة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأن فى مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف . . . » (٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٢ ص ٩٦١

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥٩٥

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : « إن الله على كل شىء قدير » أى : إن الله — تعالى — لا يعجزه شىء يريده ؛ لأنه قدير على فعل كل شىء . فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها ، من كونه — سبحانه — يزيد فى الخلق ما يشاء ، وينقص منه ما يشاء .

وقوله — تعالى — : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . . » بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله على عباده .

والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز . بعلاقة السببية لأن فتح الشىء المغلق ، سبب لإطلاق ما فيه وإرساله .

أى : ما يرسل الله — تعالى — بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة فى الأمطار ، وفى الأرزاق ، وفى الصحة .. وفى غير ذلك ، فلا أحد يقدر على منعها عنهم .

« وما يمسك فلا مرسل له من بعده » أى : وما يمسك من شىء لا يريد إعطاءه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بعد أن منعه الله — تعالى — عنهم .

« وهو » — سبحانه — « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أقواله وأفعاله .

وعبر — سبحانه — فى جانب الرحمة بالفتح ، للإشعار بأن رحمته — سبحانه — من أعظم النعم وأعلاها ، حتى لكأنها بمنزلة الخزائن المليئة بالخيرات والتى متى فتحت أصاب الناس منها ما أصابوا من نفع وبر .

و « من » فى قوله « من رحمة » للبيان ، وجاء الضمير فى قوله « فلا ممسك لها » مؤنثاً ، لأنه يعود إليها وحدها ،

وجاء مذكراً في قوله « فلا مرسل له » لأنه تشملها ويشمل غيرها ، أي : وما يمسك من رحمة أو غيرها من عباده فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه — سبحانه — .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله . . (١) .

وقوله — سبحانه — : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » (٢) .

قال ابن كثير : وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري . أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعده . . . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك » (٣) — أي : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذي ينفعه عن عمله الصالح .

ثم وجه — سبحانه — نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : « يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . . . » .

والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله — تعالى — عليها ، واستعمالها فيما خلقت له .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠٧

(٢) سورة الأنعام الآية ١٧

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٠

والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التى أنعم بها — سبحانه — على الناس ، كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم .

والاستفهام فى قوله : «هل من خالق غير الله يرزقكم» للنفى والإنكار ، أى : يأيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم ، نعم الله - تعالى - عليكم ، واشكروه عليها ، واستعملوها فى الوجوه التى أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله - تعالى - يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزروع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التى فيها حياتكم وبقاؤكم .

وقوله - تعالى - «لا إله إلا هو» جملة مستأنفة لتقرير النفى المستفاد مما قبله ، أى : لا إله مستحق للعبادة والطاعة إلا الله - تعالى - ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذى أعطاكم النعم التى لا تعد ولا تحصى .

«فأنى تؤفكون» أى : وما دام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك فى عبادته .

فقوله «تؤفكون» من الأفك - بالفتح - بمعنى الصرف والقلب ، يقال : أفكه عن الشىء ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله - تعالى - : «قالوا أجئتنا لتأفكنا عما وجدنا عليه آباءنا» أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا

* * *

وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وهيمنته على شئون خلقه . . أخذت السورة الكريمة فى تسلية النبى (ﷺ) وفى دعوة الناس إلى اتباع ما جاءهم به هذا النبى الكريم ، وفى بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، فقال — تعالى — :

وَإِن يُكَذِّبُوكَ

فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ
لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ
لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قال الآلوسى : قوله : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » تسلية له (صلى الله عليه وسلم) بعموم البلية والوعد له (صلى الله عليه وسلم) والوعيد لأعدائه .

والمعنى : وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين ، فتأس بأولئك الرسل فى الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصبروا على تكذيبهم . فجملة « فقد كذبت رسل من قبلك » قائمة مقام جواب الشرط ، والجواب فى الحقيقة تأس ، وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب . . . » (١) .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٧

وجاء لفظ الرسل بصيغة التنكير ، للإشعار بكثرة عددهم، وسمو منزلتهم.

أى : وإن يكذبك - أيها الرسول الكريم - قومك ، فلا تحزن ولا تبتئس، فإن إخوانك من الأنبياء الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست بدعا فى ذلك .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . . »(١) .

وقوله - عز وجل - : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله . . »(٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى تسليته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وإلى الله ترجع الأمور » .

أى : وإلى الله - تعالى - وحده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى الناس ، بين لهم فيه أن البعث حق ، وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فقال - تعالى - « يأيها الناس إن وعد الله حق . . . »

أى : إن ما وعدكم الله - تعالى - به من البعث والحساب والثواب والعقاب حق لا ريب فيه ، ومادام الأمر كذلك « فلا تغرنكم الحياة الدنيا » أى : فلا تخدعنكم بمتعها، وشهواتها ، ولذائذها ، فإنها إلى زوال وفناء، ولا تشغلنكم هذه الحياة الدنيا عن أداء ما كلفكم - سبحانه - بأدائه من فرائض وتكاليف

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٤

« ولا يغرنكم بالله الغرور » أى : ولايخدعنكم عن طاعة ربكم ، ومالك أمركم « الغرور » .

أى : الشيطان المبالغ فى خداعكم ، وفى صرفكم عن كل ما هو خير وبر .

فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذى أقسم بالأيمان المغلظة ، بأنه لن يكف أبدا عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم .

فالمقصود بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال وتحذيرهم من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

ثم أكد — سبحانه — هذا التحذير بقوله : « إن الشيطان لكم عدو » يابنى آدم ، عداوة قديمة وباقية إلى يوم القيامة .

وما دام الأمر كذلك « فاتخذوه عدوا » أى : فاتخذوه أنتم عدوا لكم فى عقائدكم . وفى عباداتكم ، وفى كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته وهمزاته وخطواته . .

وقوله : « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » تقرير وتأكيد لهذه العداوة .

أى : اتخذوا — يابنى آدم — الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبدا ، وإنما يدعوهم إلى العقائد الباطلة ، والأقوال الفاسدة ، والأفعال القبيحة التى تجعلهم يوم القيامة من أهل النار الشديدة الاشتعال . .

ثم بين — سبحانه — أقسام الناس يوم القيامة فقال : « الذين كفروا »

بكل ما يجب الإيمان به « لهم عذاب شديد » بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم — عز وجل — ، واتباعهم للشيطان . .

« والذين آمنوا وعملوا » الأعمال « الصالحات لهم » من ربهم « مغفرة » عظيمة « وأجر كبير » لا يعلم مقداره إلا الله — تعالى — .

ثم بين — سبحانه — الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، فقال : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا . . »

والاستفهام للإنكار ، و « من » موصولة فى موضع رفع على الابتداء . والجملة بعدها صلتها ، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه ، و « زين » من التزيين بمعنى التحسين ، وقوله « سوء عمله » أى : عمله السيء ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

والمعنى : أفمن زين له الشيطان عمله السيء ، فرآه حسنا ، كمن ليس كذلك ؟ كلا إنهما لا يستويان فى عرف اى عاقل ، فإن الشخص الذى ارتكب الأفعال القبيحة التى زينها له الشيطان ، أو نفسه الأمارة بالسوء ، أو هواه . . مصيره إلى الشقاء والتعاسة .

أما الشخص الذى خالف الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المردي . . فمصيره إلى السعادة والفلاح .

وقد صرح — سبحانه — بالأمرين فى آيات منها قوله — تعالى — « أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » ؟

وجملة « فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا . .

أى : هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا قدرة لك على هدايتهم ـ أيها الرسول الكريم ـ فإن الله ـ تعالى ـ وحده ، هو الذى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدى من يشاء هدايته .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » للتفريع . والحسرات جمع حسرة ، وهى أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور « عليهم » متعلق بقوله « حسرات » .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك — أيها الرسول الكريم — فامض فى طريقك وبلغ رسالة ربك ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من أجل هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق ، واعتنقوا الباطل ، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا . .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بما يزيد فى تسلية الرسول — ﷺ — فقال — تعالى — : « إن الله عليم بما يصنعون » .

أى : إن الله — تعالى — لا يخفى عليه شىء مما يفعله هؤلاء الجاهلون من أفعال قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب .

وشبيه بهذه الآية قوله — تعالى — : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »(١) .

وقوله — سبحانه — : فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »(٢) .

• • •

(١) سورة الشعراء . الآية ٣
(٢) سورة الكهف . الآية ٦

وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم -، وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين، وحسن عاقبة المؤمنين، بعد كل ذلك . . ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده، ومن رحمته بهم، نرى ذلك فى الرياح وفى السحب، وفى البحار والأنهار، وفى الليل والنهار، وفى الشمس والقمر . . وفى غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة فى هذا الكون .

قال - تعالى - :

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ
جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ
يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ
مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ
مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن

كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا
يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

قال أبو حيان ــ رحمه الله ــ : لما ذكر ــ سبحانه ــ أشياء من الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور الأرضية كالرياح وإرسالها ، وفى هذا احتجاج على منكرى البعث ، دلهم على المثال الذى يعاينونه ، وهو وإحياء الموتى سيان ، وفى الحديث أنه قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال : هل مررت بوادى أهلك محلا ـ أى جدبا بالانبات فيه ـ ، ثم مررت به يهتز خضرا : فقالوا : نعم فقال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه (١) .

فقوله ــ تعالى ــ «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا» بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته ــ عز وجل ــ ومن سعة رحمته بعباده .

وقوله : «فتثير» من الإثارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال.

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٧ ص ٣٠٢ لأبى حيان

أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى أرسل الرياح ، فجعلها بقدرته النافذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ، فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ، وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك .

وقوله : «فسقناه إلى بلد ميت» بيان للحكمة من هذه الإثارة ، والمراد بالبلد الميت : والأرض الجدباء التى لانبات فيها ، والضمير فى « فسقناه » يعود إلى السحاب .

وقوله : « فأحيينا به الأرض بعد موتها » أى : فأحيينا بالمطر النازل من السحاب الأرض الجدباء ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فالضمير فى قوله «به» يعود إلى المطر ، لأن السحاب يدل عليه لما بينهما من تلازم ، ويصح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار .

وقال - سبحانه - « فتثير » بصيغة المضارع ، استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ، والتى من شأنها أن تغرس العظات والعبر فى النفوس .

وقال - سبحانه - «فسقناه ، فأحيينا» بنون العظمة ، وبالفعل الماضى ، للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعه دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح للسحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بكل ما فعل فيه نوع تمييز وخصوصية .

ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه . » (١) .

والكاف فى قوله - تعالى - : « كذلك النشور » بمعنى مثل ، وهى على

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠١

رفع على الخبرية ، أي : مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون إحياء الأموات منكم .

قال الإمام الرازى : فإن قيل ما وجه التشبيه بقوله : « كذلك النشور » ؟ فالجواب من وجوه :

أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع — سبحانه — بين أجزاء الأعضاء .

ثالثها : كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت (١) .

والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت . يقال : أنشر الله ـ تعالى ـ الموتى ونشرهم ، إذا أحياهم بعد موتهم . ونشر الراعى غنمه ، إذا بثها بعد أن آواها

ثم بين — سبحانه — أن العزة الكاملة إنما هى لله — تعالى — وحده فقال : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا » .

والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والإستعلاء ، من قولهم : أرض عزاز أى : صلبة قوية ، و « من » شرطية ، وجواب الشرط محذوف ، وقوله : « فلله العزة جميعا » تعليل للجواب المحذوف .

والمعنى من كان من الناس يريد العزة التى لا ذلة معها ، فليطع الله وليعتمد عليه وحده فلله ـ تعالى ـ العزة كلها فى الدنيا والآخرة وليس لغيره منها شىء

وفى هذا رد على المشركين وغيرهم ممن يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال ـ تعالى ـ : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونوا عليهم ضدا » (٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٢٢

(٢) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢

وقال - سبحانه - : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة . فإن العزة لله جميعا » (١) .

قال القرطبي ما ملخصه : يريد - سبحانه - في هذه الآية ، أن ينبه ذوى الأقدار والهمم ، من أين تنال العزة ومن أين تستحق . فمن طلب العزة من الله - تعالى - وجدها عنده ، - إن شاء الله - ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه .. ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده ، وقال (ﷺ) مفسراً لهذه الآية : « من أراد عز الدارين فليطع العزيز » ، ولقد أمن القائل وإذا تذللت الرقاب تواضعاً : منا إليك فعزها في ذلها .

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله - تعالى - فإن من إعتز بغير الله ، أذله الله ، ومن إعتز به - سبحانه - أعزه ، (٢) .

ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، لأن العزة الكاملة لله - تعالى - وحده وأما عزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فمستمدة من قربه من الله - تعالى - ، كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وبرسوله (صلى الله عليه وسلم) .

والخلاصة أن هـــذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذى يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية ، ألا وهو طاعة الله - تعالى - ، والاعتماد عليه والاعتزاز به .

وقوله - سبحانه - : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » حض المؤمنين على النطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٩

(٢) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٣٢٨

و « يصعد » من الصعود بمعنى الإرتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع . يقال صعد في السلم ويصعد صعودا ، إذا إرتقاه وإرتفع فيه .

و « الكلم » اسم جنس جمعي واحدة كلمة .

والمراد بالكلم الطيب : كل كلام يرضى الله - تعالى - من تسبيح وتحميد وتكبير ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة .

والمراد بصعوده . قبوله عند الله - تعالى - ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة .

والمعنى : إليه - تعالى - وحده ، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه - وحده - ترفع صحائف أعمال عباده الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب ، والعمل الصالح الصادر من عباده المؤمنين يرفعه الله - تعالى - إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .

فالفاعل لقوله « يرفعه » ضمير يعود على الله - تعالى - ، والضمير المنصوب يعود إلى العمل الصالح أى : يرفع الله - تعالى - العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه .

ومنهم من يرى أن الفاعل لقوله « يرفعه » هو العمل الصالح ، والضمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيب . أى : أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب ، بأن يجعله مقبولا عند الله - تعالى - .

ومنهم من يرى العكس ، أى : أن الكلم الطيب هو الذى يرفع العمل الصالح .

قال الشوكانى ما ملخصه : ومعنى : « والعمل الصالح يرفعه » أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . كما قال الحسن وغيره ، ووجهه أنه لا يقبل الكلم

الطيب إلا مع العمل الصالح وقيل : إن فاعل « يرفعه » وهو الكلم الطيب ، ومفعوله الصالح ، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل « يرفعه » ضمير يعود إلى الله - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب ؛ لأن العمل يحقق الكلام ، وقيل : والعمل الصالح هو الذى يرفع صاحبه . »(١).

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله « يرفعه » هو الله - تعالى - ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل الصالح ؛ لأن الله - تعالى - هو الذى يقبل الأقوال الطيبة ، وهو - سبحانه - الذى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين .

ثم بين - تعالى - بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » .

والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به صاحبه الشر والسوء - كما فى الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به صاحبه الخير والنفع و « السيئات » جمع سيئة وهى صفة الموصوف محذوف.

وقوله « يبور » أى : يبطل ويفسد ، من البوار ، يقال : بار المتاع بوارا إذا كسد وصار فى حكم الهالك .

أى : والذين يمكرون المكرات السيئات من المشركين والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله - تعالى - ، ومكر أولئك الماكرين المفسدين ، ومصيره إلى الفساد ، والخسران ؛ لأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله .

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٣٤٠

ويدخل فى هذا المكر السىء مافعله المشركون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى دار الندوة ، حيث بيتوا قتله ، ولكن الله - تعالى نجاه من شرورهم ، كما يدخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة ، ونياتهم الخبيثة .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث والنشور ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : « والله خلقكم من تراب » أى : خلقكم إبتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب « ثم من نطفة » وأصلها الماء الصافى أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف ، يقال : نطفت القربة إذا أقطرت .

والمراد بها هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

« ثم جعلكم أزواجا » أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال - تعالى - : « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » . أو المراد : ثم جعلكم تتزاوجون ، فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل . « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » أى : لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا يحصل منها وضع لما فى بطنها إلا والله — تعالى — عالم به علما تاما لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء .

« وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » والمراد بالمعمر الشخص الذى يطيل الله — تعالى — عمره .

والضمير فى قوله « من معمر » يعود إلى شخص آخر ، فيكون المعنى : ما يمد - سبحانه - فى عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت فى كتاب عنده - تعالى - ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد ، أو علم الله الأزلى .

ومنهم من يرى أن فى قوله « من عمره » يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر

فيكون المعنى ، وما يمد الله - تعالى - فى عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره بمضى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت فى علمه - سبحانه - .

قال بعض العلماء : وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك ، ومحصلة : إنه إختلف فى معنى « معمر » فقيل : هو المزاد عمره : بدليل مايقابله من قوله « ولا ينقص » وقيل : المراد بقوله « معمر » من يجعل له عمر ، وهل هو شخص واحد أو شخصان ؟

فعلى رأى من قال بأن المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى أنه يكتب عمره مائة سنة - مثلا - ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا فكتابة الأصل هى التعمير ، والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :

حيـــاتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها انتقصت به جزءا

والضمير حينئذ راجع إلى المذكور ، والمعمر هذا هو الذى جعل الله - تعالى - له عمرا طال هذا العمر أو قصر .

وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزاد فى عمره ، يكون من ينقص فى عمره غير الذى يزاد فى عمره فهما شخصان ، والضمير فى « عمره » على هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون المزيد من عمره منقوصا من عمره . . » (١) .

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - الرأى الأول ، وهو أن الضمير فى قوله « من عمره » يعود إلى شخص آخر . فقال : وأولى التأويلين فى ذلك عندى بالصواب ، التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنيين وأشبههما بظاهر التنزيل (٢) .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ١٥ ص ٤٩٧٦

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٢ ص ٨١

واسم الإشارة فى قوله « إن ذلك على الله يسير » يعود إلى الخلق من تراب وما بعده .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ، ثم من نطفة .. يسير وهين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه - لايعجزه شىء على الإطلاق .

ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب قدرته، فقال : « ومايستوى البحران ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج . . » .

والماء العذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة ، وهو ماء الأنهار ، وسمى فراتا لأنه يفرت العطش ، أى : يقطعه ويزيله ويكسره .

والماء الملح الأجاج : هو شديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تلهب النار ؛ لأنه شربه يزيد العطشان عطشا وتعبا

قالوا : والآية الكريمة مثل للمؤمن والكافر ، فالبحر العذب : مثل للمؤمن، والبحر الملح : مثل للكافر .

فكما أن البحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه ، والآخر ملح أجاج . لايتساويان فى طعمهما ومذاقهما ، - وإن اشتركا فى بعض الفوائد - فكذلك المؤمن والكافر ، لايتساويان فى الخاصية العظمى التى خلقا من أجلها، وهى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، - وإن اشتركا فى بعض الصفات الأخرى كالسخاء والشجاعة - لأن المؤمن استجاب لفطرته فآمن بالحق ، أما الكافر فقد عاند فطرته ، فأصر على الكفر .

وقوله : « ومن كل تأكلون لحما طريا » بيان لبعض النعم التى وهبها - سبحانه - لعباده من وجود البحرين .

أى : ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طرياً ، أى : غضاً شهياً مفيداً لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماك وما يشبهها .

قال بعض العلماء، وفي وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر المأكولات فسبحان الخبير بشئون خلقه.

وفيه - أيضا - إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - حيث أوجد هذا اللحم الطرى النافع فى الماء الملح الأجاج الذى لا يشرب.

وقد ذكره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه، لحديث جابر بن عبد الله، عن النبى (ﷺ) أنه قال: «ما نضب عنه الماء فكلوه، وما لفظه الماء فكلوه، وما طفا - على وجه الماء - فلا تأكلوه».

فالمراد من ميتة البحر فى حديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وما لفظه البحر لا ما مات فيه من غير آخذ» (١).

وقوله - تعالى -: «وتستخرجون حلية تلبسونها» بيان لنعمة ثانية من النعم التى تصل إلى الناس عن طريق البحرين.

والحلية - بكسر الحاء - : اسم لما يتحلى به الناس، ويتزينون بلبسه، وجمع حليته: حلى وحلى - بكسر الحاء وضمها - يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلى.

أي: ومن النعم التى تصل إليكم عن طريق البحرين، استخراجكم منهما ما ينفعكم، وما تتحلى - نساؤكم، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما.

والتعبير بقوله: «وتستخرجون» إلى كثرة الإخراج، فالسين والتاء للتأكيد. كما يشير بأن من الواجب على المسلمين، أن يباشروا بأنفسهم

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١

استخراج مافى البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند — سبحانه — لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور ، فقال « تلبسونها » على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى الأعم الأغلب من الأحوال .

قال الآلوسى ما ملخصه ، وقوله : « تلبسونها » أى : تلبسها نساؤكم وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن ، فإن النساء يتزين — فى الغالب — ليحسن فى أعين الرجال . . » (١) .

وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل قرآنى واضح على بطلان دعوى بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر الملح خاصة » (٢) .

وقوله — تعالى — « وترى الفلك فيه مواخر » بيان لنعمة ثالثة من نعمه — تعالى — عن طريق وجود البحار فى الأرض .

وأصل المخر : الشق . يقال مخرت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين أمواجه ومخر الماء الأرض إذا شقها .

أى : وترى - أيها العاقل - ببصرك السفن فى كل من البحرين « مواخر » أى تشق الماء بمقدماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة .

والضمير فى قوله « فيه » يعود إلى البحر الملح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم من أمرها فى البحر العذب ، وإن كانت السفن تجرى فى البحرين .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله « فيه » يعود إلى جنس البحر ، أى : وترى السفن تشق كل بحر ، لتسير فيه من مكان إلى مكان .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١١٣

(٢) أضواء البيان ج ٦ ص ٦٤٠ للشيخ الشنقيطى — رحمه الله — .

واللام في قوله – تعالى – : لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق .

أي : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هي من فضل الله – تعالى – عليكم ، ومن رحمته بكم ، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا .

ثم بين – سبحانه – نعما أخرى تتجلى في الليل والنهار ، وفي الشمس والقمر ، فقال : « يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . .

أي : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والنهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما في الآخر ، وجعلهما متعاقبين مع زيادة أحدهما عن الآخر في الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب وأوجد – أيضاً – بفضله ورحمته الشمس والقمر لمنفعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذي حدده الله – تعالى – لانتهاء عمر هذه الدنيا . .

والإشارة في قوله : « ذلكم الله ربكم له الملك . . » تعود إلى الخالق والموجد لتلك الكائنات العجيبة البديعة ، وهو الله – عز وجل – .

أي : ذلكم الذي أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله – تعالى – ربكم وهو وحده الذي له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه في ملكيته منازع ، « والذين تدعون من دونه » أي : والذين تعبدونهم من دون الله – تعالى – ، وتصفونهم بأنهم آلهة .

« ما يملكون من قطمير » والقطمير : القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة .

أو هو النقطة في ظهر النواة ، ويضرب مثلا لأقل شيء وأحقره .

أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - لا يملكون معه - سبحانه - شيئا ، ولو كان هذا الشىء فى نهاية القلة والحقارة والصغر ، كالنقطة التى تكون فى ظهر النواة .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وقرره فقال : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم . . »

أى : إن هذه المعبودات الباطلة لاتملك من شىء مع الله - تعالى - ، بدليل انكم إن تدعوهم لنفعكم ، لن يسمعوا دعاءكم ، وإن تستغيثوا بهم عند المصائب والنوائب ، لن يلبوا استغاثتكم . .

« ولو سمعوا » على سبيل الفرض والتقدير « ما استجابوا لكم » لأنهم لاقدرة لهم على هذه الاستجابة لعجزهم عن ذلك .

« ويوم القيامة » الذى تتجلى فيه الحقائق ، وتنكشف الأمور « يكفرون بشرككم » .

أى : يتبرءون من عبادتكم لهم ، ومن إشراككم إياهم العبادة مع الله - تعالى - ، فضلا عن عدم إستجابتهم لكم إذا دعوتموهم لنصرتكم .

« ولا ينبئك » أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التى لاتقبل الشك أو الريب.

« مثل خبير » أى : مثل من هو خبير بأحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها . وهو الله - عز وجل - فإنه - سبحانه - هو الذى يعلم السر وأخفى.

وبهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا فى أرجاء هذا الكون ، وساقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر . . وهى نعم تدل على وحدانيه المنعم بها ، وعلى قدرته - عز وجل - وفى كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب .

ثم وجه — سبحانه — نداء ثالثا إلى الناس ، أبههم فيه إلى فقرهم إليه — سبحانه — ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه، وإلى وظيفة الرسول — صلى الله عليه وسلم — الذي أرسله خالقهم إليهم ، وإلى الفرق الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكذبين ، فقال — تعالى — :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ
وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا
ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾
إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

وقوله - تعالى - : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله.. نداء منه - سبحانه - للناس، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم، وأنهم لا غنى لهم عن خالقهم - عز وجل - .

أى : يأيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله - تعالى - فى كل شئونكم الدنيوية والأخروية « والله » - تعالى وحده « هو الغنى » عن كل مخلوق سواه « الحميد » أى : المحمود من جميع الموجودات، لأنه هو الخالق لكل شىء، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التى لا تحصى.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم، لأن الفقر مما يتبع الضعف: وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر، وقد شهد الله - سبحانه - على الإنسان بالضعف فى قوله : « وخلق الإنسان ضعيفا »، ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء »(1).

وجمع - سبحانه - فى وصف ذاته بين الغنى والحميد . للإشعار بأنه - تعالى - بجانب غناه عن خلقه، هو الذى يفيض عليهم من نعمه، وهو الذى يعطيهم من خيره وفضله، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم.

قال الآلوسى : قوله « الحميد » أى : المنعم على جميع الموجودات، المستحق بإنعامه للحمد، وأصله المحمود، وأريد به ذلك عن طريق الكناية، ليناسب ذكره بعد فقرهم، إذا الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادا منعما، ومثله مستحق للحمد، وهذا كالتكميل لما قبله .. »(2).

وقوله - سبحانه - : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » بيان لمظهر من مظاهر غناه عن الناس.

أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم ويزلكم من هذا الوجود، ويأت بأقوام آخرين سواكم، فوجودكم فى هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته.

واسم الإشارة فى قوله « وما ذلك على الله بعزيز » يعود على الإذهاب بهم، والإتيان بغيرهم.

(1) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٠٦ (2) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٨٣ .

وما ذلك الذي ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم، بعزيز، أي: بصعب أو عسير أو ممتنع على الله — تعالى —، لأن قدرته — تعالى — لا يعجزها شيء.

ثم بين — سبحانه — أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال: «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

وقوله: «تزر» من الوزر بمعنى الحمل. يقال: فلان وزر هذا الشيء إذا حمله. وفعله من باب «وعد»، وأكثر ما يكون استعمالا في حمل الآثام.

وقوله «وازرة»: صفه لموصوف محذوف. أي: ولا تحمل نفس آثمة، إثم نفس أخرى، وإنما كل نفس مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التي باشرتها، أو تسببت فيها.

وقوله: «وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى» مؤكد لمضمون ما قبله، من مسئولية كل نفس عن أفعالها.

وقوله: «مثقلة» صفة لموصوف محذوف، والمفعول محذوف — أيضاً — للعلم به.

وقوله «حملها» أي: ما تحمله من الذنوب والآثام، إذ الحمل — بكسر الحاء — ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه.

والمعنى: لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، إن تطلب نفس مثقله بالذنوب من نفس أخرى، أن تحمل عنها شيئا من ذنوبها التي أثقلتها، لا تجد إستجابة منها، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها.

قال — تعالى —: «يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ...».

وقال — سبحانه —: «يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولاتزر نفس وزر أخرى؟ قلت : لأن المعنى ان النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها ، لاوزر غيرها .

فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله : وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، ؟

قلت : تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون اثقال إضلالهم لغيرهم ، مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شىء من وزر غيرهم.

فإن قلت : فما الفرق بين معنى « ولاتزر وازرة وزر أخرى ، وبين معنى : « وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء . . . » ؟

قلت : الأول فى الدلالة على عدل الله ـ تعالى ـ فى حكمه ، وأنه ـ تعالى ـ لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها .

والثانى : فى أنه لاغياث يومئذ لمن استغاث . . وإن كان المستغاث به بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ . .

فإن قلت : إلام أسند كان فى قوله « ولو كان ذا قربى » ؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من قوله : « وإن تدع مثقلة » .

فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو ؟ قلت : « ليعم ويشمل كل مدعو . »(1)

وقوله ـ تعالى ـ : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » كلام مستأنف مسوق لبيان من هم أهل للإتعاظ والإستجابة للحق .

أى : أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ إنما ينفع وعظك وإنذارك . أولئك العقلاء الذين يخشون ربهم ـ عز وجل ـ دون أن يروه ، أويروا عذابه ، والذين يؤدون الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع واطمئنان .

---

(1) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٦٠٧

ثم حض - سبحانه - على تزكية النفوس وتطهيرها فقال : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » أى : ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان ، وحصن نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر والثواب ، والله — تعالى — إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره .

فالجملة الكريمة دعوة من الله - تعالى - للناس ، إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحداً لن يلبى طلب غيره فى أن يحمل شيئاً عنه من أوزاره .

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل .. فقال - تعالى - : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات . . . » .

والحرور : هو الريح الحارة التى تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .

أى : وكما أنه لا يستوى فى عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصح المساواة بين الظلمات والنور ، وكذلك لا تصح المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظلمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التى تشبه السموم .

وكرر — سبحانه — لفظ « لا » أكثر من مرة ، لتأكيد نفى الاستواء بأية صورة من الصور .

وقوله : «وما يستوى الأحياء ولا الأموات» تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم ، أوهو تمثيل للعلماء والجهلاء. قال الإمام ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا يستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء والأموات ، وهذا مثل ضربه الله المؤمنين الأحياء ، والكافرين ، وهم الأموات ، كقوله ـ تعالى ـ : «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها . . » .

وقال ـ تعالى ـ : «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا » فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى . . . والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم . » (١) .

وقوله ـ تعالى ـ : «إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور» بيان لنفاذ قدرة الله ـ تعالى ـ ، ومشيئته .

أى : إن الله ـ تعالى ـ يسمع من يشاء أن يسمعه ، ويجعله مدركا للحق ، ومستجيبا له أما أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ فليس فى استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم وباطلهم ، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى فى فقدان الحس ، وفى عدم السماع لما تدعوهم إليه .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول (ﷺ) عما أصابه من هؤلاء الجاحدين ، ثم حدد الله ـ تعالى ـ لنبيه (ﷺ) وظيفته فقال : «إن أنت إلا نذير» .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٢٩

أى : ما أنت - أيها الرسول الكريم - إلا منذر الناس من حلول عذاب الله - تعالى - بهم ، إذا ما استمروا على كفرهم ، أما الهداية والضلال فهما بيد الله - تعالى - وحده .

« إنا أرسلناك » - أيها الرسول الكريم - إرسالا ملتبساً « بالحق » الذى لا يحوم حوله الباطل « بشيراً ونذيراً » أى : أرسلناك بالحق مبشراً المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذراً للكافرين بأشد ألوان العقاب .

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » أى : وما من أمة من الأمم الماضية ، إلا وجاءها نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر ، ويدعوها إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .

فمن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا . ومنهم من استحب العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تسليته لرسوله - (ﷺ) تسلية أخرى فقال : « وإن يكذبوك ، فقد كذب الذين من قبلهم » .

أى : وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن ، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الذين أرسلناهم إليهم ، كما كذبك قومك .

وإن هؤلاء السابقين قد « جاءتهم رسلهم بالبينات » أى : بالمعجزات الواضحات « وبالزبر » أى : وبالكتب المنزلة من عند الله - تعالى - جمع زبور وهو المكتوب ، كصحف إبراهيم وموسى .

« وبالكتاب المنير » أى : وبالكتاب الساطع فى براهينه وحججه ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، والإنجيل الذى أنزلناه على عيسى .

قال الشوكانى : قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغاير المفهومات ، وإن كانت متحدة فى الصدق ، والأولى تخصيص

البينات بالمعجزات ، والزبر بالكتب التى فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام ،(١) .

« ثم أخذت الذين كفروا » بالعذاب الشديد ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتكذيبهم لرسلهم .

ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، لذمهم والإشعار بعلة الأخذ؟

والاستفهام فى قوله — تعالى — « فكيف كان نكير » للتهويل ، أى : فانظر — أيها العاقل — كيف كان إنكارى عليهم ، لقد كان إنكارا مصحوبا بالعذاب الأليم الذى دمرهم تدميرا ، واستأصلهم عن آخرهم .

* * *

ثم ذكر — سبحانه — بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته ، وبين من هم أولى الناس بخشيته ، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه ، ويحافظون على أداء فرائضه ، ووعدهم على ذلك بالأجر الجزيل فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٣٤٦

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ
مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

والاستفهام فى قوله - تعالى - : «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس فى عقائدهم وأحوالهم أمر مطرد ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى فى الحيوان والحجارة والنبات.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : «ألم تر . . . » هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك ، فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشىء ، بحال من رآه ، فى أنه لا ينبغى أن

يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة فى شهرته . . . » (١) .

والخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو لكل من يتأتى له الخطاب ، بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة .

والمعنى : لقد علمت-أيها العاقل-علما لا يخالطه شك ، أن الله-تعالى-أنزل من السماء ماء كثيرا ، فأخرج بسببه معه من الأرض ، ثمرات مختلفا ألوانها . فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر ، وبعضها أخضر . . . وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعا تسقى بماء واحد ، كما قال-تعالى- : « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

وجاء قوله « فأخرجنا . . » على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء .

وقوله « مختلفا » صفة لثمرات . وقوله « ألوانه » فاعل به .

وقوله — تعالى — : (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته — عز وجل — .

قال القرطبى ما ملخصه : الجدد جمع جدة - بضم الجيم - وهى الطرائق المختلفة الألوان .. والجدة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدة :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٢ ص ١٦٠

(٢) سورة الرعد الآية ٤

الطريقة والجمع جدد . . أي : طرائق تخالف لون الجبل ، ومنه قولهم : ركب فلان جدة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا . . »(١) .

وغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشيء الشديد السواد . والعرب تقول للشيء الشديد السواد ، أسود غربيب .

وقوله : « سود » بدل من « غرابيب » .

أي : أنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، وجعلنا بقدرتنا من الجبال قطعا ذات ألوان مختلفة ، فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ، ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا ، وبديع صنعنا . .

ثم بين — سبحانه — أن هذا الاختلاف ليس مقصورا على الجبال فقال : « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . . » .

وقوله : « مختلف » صفة لموصوف محذوف . وقوله « كذلك » صفة — أيضاً — لمصدر محذوف ، معمول لمختلف .

أي : ليس اختلاف الألوان مقصورا على قطع الجبال وطرقها وأجزائها بل — أيضاً — من الناس والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلف ألوانها اختلافا ، كذلك الاختلاف الكائن في قطع الجبال ، وفي أنواع الثمار .

وإنما ذكر ـ سبحانه ـ هنا اختلاف الألوان في هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله ـ تعالى ـ ، وعلى بديع صنعه .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٤ ص ٣٤٢ .

ثم بين - سبحانه - أولى الناس بخشيته فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أى : إنما يخاف الله — تعالى — ويخشاه ، العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعته وإخلاص فى العبادة ، أما الجاهلون بذاته وصفاته - تعالى - ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لا نطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحا للعلماء ، حيث قصد — سبحانه — خشيته عليهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو أخر ؟ قلت : لابد من ذلك ، فإنك إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى . إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى انهم لا يخشون إلا الله ، كقوله - تعالى - : « ولا يخشون أحدا إلا الله » وهما معنيان مختلفان .

فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ؟

قلت : لما قال « ألم تر » بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته . . أتبع ذلك بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء كأنه قال : إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنه علمه .

وعن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به »(١) .

وقوله : « إن الله عزيز غفور » تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على أنه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١١ .

يعاقب على المعصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحا .

ثم مدح — سبحانه — المكثرين من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : « إن الذين يتلون كتاب الله . . . »

أى . إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، وأقاموا الصلاة ، بأن أدوها فى مواقيتها بخشوع وإخلاص .

« وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » ، أى : وبذلوا مما رزقناهم من خيرات ، تارة فى السر وتارة فى العلانية .

وجملة « يرجون تجارة لن تبور » فى محل رفع خبر إن ، والمراد بالتجارة : ثواب الله — تعالى — ومغفرته .

وقوله : « تبور » بمعنى تكسد وتهلك . يقال : بار الشيء يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد .

أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله - تعالى - عليهم ، يرجون من الله - تعالى - الثواب الجزيل ، والربح الدائم ، لأنهم جمعوا فى طاعتهم له - تعالى - بين الإكثار من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية .

واللام فى قوله « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » متعلقة بقوله « لن تبور » على معنى ، يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجورهم التى وعدهم بها ، ويزيدهم فى الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه .

أو متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله « إنه » — سبحانه — « غفور » أى : واسع المغفرة « شكور » أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتثبيت فؤاد النبي (ﷺ)، وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : « والذي أوحينا إليك من الكتاب » أي القرآن الكريم « هو الحق » الثابت الذي لا يحوم حوله باطل .

« مصدقا لما بين يديه » أي : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية ، كالتوراة والإنجيل .

« إن الله بعباده لخبير بصير » أي : إن الله - تعالى - لمحيط إحاطة تامة بأحوال عباده ، مطلع على مايسرونه وما يعلنونه من أقوال أو أفعال .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وأثنت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ، والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيما .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس في هذه الحياة ، ووعدت المؤمنين الصادقين بجنات النعيم ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

و«ثم» في قوله - تعالى - : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا» للتراخي الرتبي، و«أورثنا» أي أعطينا ومنحنا، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة.. وهو المفعول الثاني لأورثنا، وقدم على المفعول الأول، وهو الموصول للتشريف.

و«اصطفينا» بمعنى اخترنا واستخلصنا، واشتقاقه من الصفو، بمعنى الخلوص من الكدر والشوائب.

والمراد بقوله: «من عبادنا» الأمة الإسلامية التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

والمعنى: ثم جعلنا هذا القرآن الذي أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - ميراثاً منك لأمتك، التي اصطفيناها على سائر الأمم، وجعلناها أمة وسطا. وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بهداياته، وتسترشد بتوجيهاته، وتعمل بأوامره ونواهيه.

قال الآلوسي: قوله: «الذين اصطفينا من عبادنا» هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم..» (١).

وفي التعبير «بالاصطفاء» تنويه بفضل هؤلاء العباد، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم، كما أن التعبير بالماضي يدل على تحقق هذا الاصطفاء.

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ص ١٩٤

ثم قسم — سبحانه — هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال : « فمنهم ظ لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » .

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعود إلى أفراد هذه الأ الإسلامية .

وأن المراد « بالظالم لنفسه » من زادت سيئاته على حسناته .

وأن المراد بالمقتصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .

وأن المراد بالسابقين بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله — تعالى — بعد ذلك : «جنات عدن يدخلونها . . » يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة ، لأنهم جميعاً من أهل الجنا بفضل الله ورحمته .

ومن العلماء من يرى أن المراد بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير فى قوله « يدخلونها » يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذ الآية نظير قوله — تعالى — فى سورة الواقعة : « وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأم والسابقون السابقون . . . »

ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما ملخصه: يقول — تعالى — ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم . . وهم هذه الأمة على ثلاثة أقسام : فمنهم ظالم لنفسه ، وهو المفرط فى بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ، ومنهم مقتصد ، وهو مؤدى الواجبات ، التارك المحرمات ولكنه يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات .

«ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله» وهو الفاعل الواجبات والمستحبات
قال ابن عباس : هم أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وفي رواية عنه : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنه برحمة الله — تعالى — ، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وفي الحديث الشريف : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» .

وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو الكافر .

والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر في الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من طرق يشد بعضها بعضا .

ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال في هذه الآية : «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة» .

ومعنى قوله «بمنزلة واحدة» في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة» (١) .

وقال الإمام ابن جرير : فإن قال لنا قائل : إن قوله «يدخلونها» إنما عنى به المقتصد والسابق بالخيرات ؟

قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل ؟ فإن قال : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولو لم يدخل النار من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد :

قيل : إنه ليس في الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله - تعالى - ، أنهم يدخلون جنات عدن ، وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٣٢

بعد عقوبة الله اياه على ذنوبه التى أصابها فى الدنيا .: ثم يدخلون الجنة بعد ذلك ، فيكون ممن عمه خير الله - تعالى - بقوله : «جنات عدن يدخلونها»(١).

وقال الشوكانى : « والظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر ، وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعائشة ، وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب . . ووجه كونه ظالما لنفسه ، أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيما »(٢).

قالوا : وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفا ، كما فى قوله — تعالى — : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . . » .

ولعل السر فى مجىء هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم أكثر الأقسام عدداً ، ويليهم المقتصدون ، ويليهم السابقون بالخيرات ، كما قال — تعالى — : « وقليل من عبادى الشكور » .

وقوله : « بإذن الله » أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء .

أى : ذلك الذى أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريثهم الكتاب ، هو الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله — تعالى — .

ثم بين — سبحانه — مظاهر هذا الفضل فقال : «جنات عدن يدخلونها» والضمير للأنواع الثلاثة .

أى هؤلاء الظالمون لأنفسهم والمقتصدون والسابقون بالخيرات ،

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٢ ص ٩٠

(٢) تفسير الشوكانى ج ص ٣٤٩

ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة التى يخلدون فيها خلوداً أبدياً .
يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به إقامة دائمة .

«يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير» أى أنهم يدخلون الجنات دخولا دائما ، وهم فى تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون فى أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤ ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص .

ثم حكى — سبحانه — ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال : «وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن» .

والحزن : غم يعترى الإنسان لخوفه من زوال نعمة هو فيها ، والمراد به هنا : جنس الحزن الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .

أى : وقالوا عند دخولهم الجنات الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعادة والاطمئنان ، الحمد لله الذى أذهب عنا جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .

«إن ربنا» بفضله وكرمه «لغفور شكور» أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء المطيعين ، حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة فى مقابل الأعمال القليلة ، «الذى أحلنا دار المقامة من فضله» أى : الحمد لله الذى أذهب عنا الأحزان بفضله ورحمته ، والذى «أحلنا» أى : أنزلنا «دار المقامة» أى: الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن سنقيم فيها إقامة دائمة وهى الجنة ، التى منحنا إياها بفضله وكرمه .

وهذه الدار «لا يمسنا فيها نصب» أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا عناء . يقال : نصب فلان — كفرح — إذا نزل به التعب والإعياء .

«ولا يمسنا فيها لغوب» أى : ولا يصيبنا فيها كلال وإعياء بسبب التعب والهموم . يقال : لغب فلان لغبا ولغوبا . إذا اشتد به الاعياء والهزال .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النصب واللغوب ؟

قلت : النصب ، التعب والمشقة ، التي تصيب المنتصب الأمر ، المزاول له.
وأما اللغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النصب . فالنصب : نفس المشقة والكلفة . واللغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور »(١) .

وبعد هذا البيان البليغ الذي يشرح الصدور لحسن عاقبة المفلحين ، ساقت السورة الكريمة حال الكافرين ، وماهم فيه من عذاب مهين ، فقال — تعالى — :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

أي : « والذين كفروا » في الدنيا بكل ما يجب الإيمان به « لهم » في الآخرة « نار جهنم » يعذبون فيها تعذيبا اليما .

ثم بين - سبحانه - حالهم في جهنم فقال : « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » أي : لا يحكم عليهم فيها بالموت مرة أخرى كما ماتوا بعد انقضاء آجالهم في الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذاب ، ولا يخفف

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦٢٤ .

عنهم من عذاب جهنم ، بل هى كلما خبت أو هدأ لهيبها ، عادت مرة أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيرا .

والمراد أنهم باقون فى العذاب الأليم بدون موت ، أو حياة يستريحون فيها .

« كذلك نجزى كل كفور » أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع ، نجزى فى الآخرة ، كل شخص كان فى الدنيا شديد الجحود والكفران لآيات ربه ، الدالة على وحدانيته وقدرته . .

وقوله - تعالى - : « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل » بيان لما يجأرون به إلى ربهم وهم ملقون فى نار جهنم .

ويصطرخون بمعنى يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ، افتعال من الصراخ ، وهو الصياح الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيراً فى العويل والاستغاثة ، وأصله يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .

وجملة « ربنا أخرجنا . . . » مقول لقول محذوف .

أى : وهم بعد أن ألقى بهم فى نار جهنم ، أخذوا يستغيثون ويضجون بالدعاء والعويل ويقولون : يا ربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا إلى الحياة الدنيا ، لكى نؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالا صالحة أخرى ترضيك ، غير التى كنا نعملها فى الدنيا .

وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى اعترافهم بجرمهم ، وبسوء أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وهنا يأتيهم من ربهم الرد الذى يخزيهم فيقول - سبحانه - « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير . . . » .

والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله « نعمركم » من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال فى الحياة الدنيا إلى الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

و « ما » فى قوله « ما يتذكر فيه » نكرة موصوفة بمعنى مدة ، والضمير فى قوله « فيه » يعود إلى عمرهم الذى قضوه فى الدنيا .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين عند مايقولون بحسرة وضراعة : ياربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا لنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربهم بقوله لهم على سبيل الزجر والتأنيب : أولم نمهلكم فى الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر والوقت الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق ، وفضلا عن كل ذلك فقد جاءكم النذير الذى ينذركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولكنكم كذبتموه وأعرضتم عن دعوته .

والمراد بالنذير : جنسه فيتناول كل رسول أرسله الله - تعالى - إلى قومه، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته ، وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فذوقوا فما للظالمين من نصير » لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسأوا فى جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذابها الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئاً من العـــذاب الذى يستحقونه .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سعة علمه ، فقال : « إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور » .

أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء سواء أكان هذا الشىء فى السموات أم فى الأرض ، إنه - سبحانه - عليم بما تضمره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس .

* * *

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ
كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ
ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

وقوله — تعالى — : «وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض . . .» بيان لجانب من فضله — تعالى — على بنى آدم .

و «خلائف» جمع خليفة ، وهو من يخلف غيره .

أى : هو — سبحانه — الذى جعلكم خلفاء فى أرضه ، وملككم كنوزها وخيراتها ومنافعها ، لكى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .

أو جعلكم خلفاء لمن سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من النقم بسبب إعراضهم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به رسولكم (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله « فمن كفر فعليه كفره » أى : فمن كفر بالحق الذى جاءه به الرسول (صلى الله عليه وسلم) واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره .

«ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا» أى : لا يزيدهم إلا بغضا شديدا من ربهم لهم ، واحتقارا لحالهم ، وغضبا عليهم .

فالمقت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذى يأتى عن طريق هذا الزواج ،المقتى ، أى : المبغوض.

«ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا» أى : ولا يزيدهم إصرارهم على كفرهم إلا خسارا وبورا وهلاكا فى الدنيا والآخرة .

فالآية الكريمة تنفر أشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله — تعالى — ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خسرانا وبوارا .

ثم أمر الله — تعالى — رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على عنادهم وجحودهم فقال : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض . . . » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتأنيب لهؤلاء المشركين أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله — تعالى — فى العبادة — ؟

إنهم لم يفعلوا — ولن يفعلوا - شيئاً من ذلك ، فكيف أبحتم لأنفسكم عبادتهم ؟ وقوله « أم لهم شرك فى السموات » تبكيت آخر لهم ، أى : وقل .

لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، فهل لهم معنا شركة فى خلق السموات أو فى التصرف فيها وحتى يستحقوا لذلك مشاركتنا فى العبادة والطاعة .

وقوله : «أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه» ، تبكيت ثالث لهم ، أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، ولم يشاركونا فى خلق السموات ، فهل نحن أنزلنا عليهم كتابا أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما يدعون ؟

والاستفهام فى جميع أجزاء الآية الكريمة للإنكار والتوبيخ .

والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها فى شركهم ، وإزهاق باطلهم بألوان من الأدلة الواضحة التى تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله ـ تعالى ـ ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما ذهبوا إليه من كفر وشرك .

ولذا ختمت الآية الكريمة بالإضراب عن أوهامهم وبيان الأسباب التى حملتهم على الشرك ، فقال ـ تعالى ـ : «بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا» .

أى : أن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً لا من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتابا بأنهم شركاء لنا فى شىء ، بل الحق أن الظالمين يدع بعضهم بعضا ، ويعد بعضهم بعضا بالوعود الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهة هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الأتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راعيها .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ ما عليه المعبودات الباطلة من عجز وضعف ، أتبع

ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعميم فضله فقال : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »

أي : إن الله — تعالى — بقدرته وحدها ، يمسك السموات والأرض كراهة أن تزولا ، أو يمنعهما ويحفظهما من الزوال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا — على سبيل الفرض والتقدير — فلن يستطيع أحد أن يمسكهما ويمنعهما عن هذا الزوال سوى الله — تعالى — « إنه » — سبحانه — « كان » ، وما زال « حليما » بعباده « غفورا » لمن تاب إليه وأناب ، كما قال — تعالى — : « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

قال الآلوسي : قوله : « ولئن زالتا » أي : إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير : « إن أمسكهما » أي : ما أمسكهما « من أحد من بعده » أي : من بعد إمساكه — تعالى — أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة في « لئن » ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه . . . . و « من الأولى مزيدة لتأكيد العموم ، والثانية للإبتداء (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما كان عليه المشركون من نقض العهود ، ومن مكر سيء حاق بهم ، ودعاهم - سبحانه - إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانباً من مظاهر فضله عليهم ورأفته بهم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٢ ص ٢٠٤

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ
نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ
إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ
ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ
ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا
كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .. » : هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيه منهم .. »(١) .

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٥٨ .

و « جهد أيمانهم » أى : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهـــد : الطاقة والوسع والمشقة .

يقال : جهد نفسه يجهدها فى الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه .

والمراد : أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق .

أى : أن كفار مكة ، أقسموا بالله - تعالى - قسما مؤكدا موثقا مغلظا ، « لئن جاءهم نذير » أى : نبى ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان بالله هو الحق .

« ليكونن أهدى » سبيلا « من إحدى الأمم » أى : ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم « فى اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذى يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

« فلما جاءهم نذير » وهو محمد — صلى الله عليه وسلم — . الذى هو أشرف الرسل .

« مازادهم إلا نفورا » أى : ما زادهم مجيئه لهم إلا نفورا عن الحق ، وتباعدا عن الهدى . أى : أنهم قبل مجىء الرسول — ﷺ — كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لا من غيرهم وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — نفروا عنه ولم يؤمنوا به .

وإنما كان القسم بالله - تعالى - غاية أيمانهم لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وبأصنامهم ، فإذا إشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله — تعالى — .

وقوله « ليكونن » جواب للقسم المقدر . وقوله (ما زادهم إلا نفورا) جواب لما .

وقوله - تعالى - : (إستكبارا فى الأرض) بدل من (نفورا) أو مفعول لأجله (ومكر السىء) معطوف على قوله (إستكبار) .

والمراد بمكرهم السيء : تصميمهم على الشرك ، وتكذيبهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، من أجل المعاندة للحق ، والإستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيء الذي إستولى على نفوسهم ، والحقد الدفين الذي في قلوبهم .

وقوله (السيء)صفة الموصوف المحذوف ، وأصل التركيب:وأن مكروا المكر السيء ، فأقيم المصدر مقام أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له .

وقوله - تعالى - : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) بيان لسوء عاقبة مكرهم ، وأن شره ما نزل إلا بهم .

وقوله : (يحيق) بمعنى يحيط وينزل . يقول : حاق بفلان الشيء ، إذا أحاط ونزل به . أي : ولا ينزل ولا يحيط شر ذلك المكر السيء إلا بأهله الماكرين .

قال صاحب الكشاف : لقد حاق بهم يوم بدر . وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - : (لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله - تعالى - يقول : (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم)(١) .

وقال الآلوسي - رحمه الله - والآية عامة على الصحيح ، والأمور بعواقبها والله - تعالى - يمهل ولا يهمل ، ووراء الدنيا الآخرة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ، ففي الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك (٢) .

وقوله — تعالى — (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) حض لهم على الاستجابة للحق ، وترك المكر والمخادعة والعناد . والسنة : الطريقة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٦١٨ .

(٢) تفسير الآلوسي جـ ٢٢ ص ٢٠٦

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون، إلا طريقتنا فى الماكرين من قبلهم ، وهى إهلاكهم ونزول العذاب والخسران بهم! إنهم ما ينتظرون إلا ذلك ،

وقوله - سبحانه - : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، وان تجد لسنة الله تحويلا ، تأكيد لثبات سنته - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .

أى : هذه سنتنا وطريقتنا فى الماكرين والمكذبين لرسلهم ، أننا نمهلهم ولا نهملهم ، ونجعل العاقبة السيئة لهم ، ولن تجد لسنة الله -تعالى- فى خلقه تبديلا بأن يضع غيرها مكانها ولن تجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به

قال الجمل ما ملخصه : قوله : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين » مصدر مضاف لمفعوله تارة كما هنا ، ولفاعله أخرى كقوله « فلن تجد لسنة الله تبديلا » لأنه - تعالى - سنها بهم ، فصحت إضافتها للفاعل والمفعول . والفاء فى قوله « فلن تجد » لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب ، ونفى وجدان التبديل والتحويل ، عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى ، وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد إنتفائهما .

والمراد : بعدم التبديل ، أن العذاب لا يبدل بغيره . وبعدم التحويل : أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره ، وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد المسىء لقبح مكره(١) .

ثم ساق لهم - سبحانه - ما يؤكد عدم تغيير سنته فى خلقه ، بأن حضهم على الإعتبار بأحوال المهلكين من قبلهم، والذين يرون بأعينهم آثارهم ، فقال - تعالى - : « أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة » .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٥٠٠

أى أعمى هؤلاء الماكرون عن التدبر ، ولم يسيروا فى الأرض ، فيروا بأعينهم فى رحلاتهم إلى الشام إلى اليمن أو غيرهما ، كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من مشركى مكه قوة ، وأكثر جمعا « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض أى وما كان شأن الله — تعالى — أن يعجزه شىء من الأشياء ، سواء أكان فى السموات أو فى الأرض » بل كل شىء تحت أمره وتصرفه .

« إنه » — سبحانه — « كان عليما » بكل شىء « قديرا على كل شىء

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من رحمته بعباده فقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من الذنوب أو الخطايا .

(ما ترك على ظهرها) أى على ظهر الأرض (من دابة) من الدواب التى تدب عليها ، (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وهو يوم القيامة .

(فإذا جاء أجلهم) الذى حدده — سبحانه — لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون (فإن الله كان بعباده بصيرا) أى : لا يخفى عليه شىء من أحوالهم .

وبعد : فهذا تفسير لسورة فاطر ، نسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

القاهرة — مدينة نصر

صباح الأحد : ٢٠ من شوال سنة ١٤٠٥ هـ ٧ / ٧ / ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٠	المقدمة ..	٢٢٧
١	الحمد لله فاطر السموات والأرض . .	٢٣١
٤	وإن يكذبوك فقد كذبت . .	٢٣٧
٩	والله الذي أرسل الرياح . .	٢٤٣
١٥	يأيها الناس أنتم الفقراء . .	٢٥٧
٢٧	ألم تر أن أنزل . .	٢٧٥
٣٢	ثم أورثنا الكتاب . .	٢٧٠
٣٦	والذين كفروا لهم نار جهنم . .	٢٧٧
٣٩	هو الذي جعلكم خلائف . .	٢٧٨
٤٢	وأقسموا بالله جهد أيمانهم . .	٢٨٤

٧ ش الباب الأخضر المشهد الحسيني

القاهرة ت ٩٣٦٠٠٨